إيريل دورفمان

ترجمة: عبد الوهاب المقالح

الأرامل

رواية

دار نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع

الطبعة الثالثة

ايريل دورفمان

الأرامل

ترجمها عن الإسبانية

ستيفن كسلر

ترجمها للعربية

د. عبد الوهاب المقالح

عنوان الكتـــاب: الأرامــل
اسـم المؤلــف: ايريل دورفمان
عدد الصفحات: 168
القيـــــــاس: 14.5 ❖ 21.5
الطبعة الأولـى: 1500 / 2002
الطبعة الثانية: 1000 / 2006
الطبعة الثالثة: 1000 / 2014 م - 1435 هـ



سورية - دمشق - ص ب 4650
تلفاكس: +963 11 2314511
هاتـــف: +963 11 2326985

E-mail: info@ninawa.org
www.ninawa.org
دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع
Ayman ghazaly

العمليات الفنية:
التنضيد والإخراج والطباعة
القسم الفني - دار نينوى

العنوان الأصلي

Widows A novel by Eriel Loruman

رواية

الحرب البطولية عن النضال

من أجل البقاء على قيد الحياة

على سبيل الإهداء

كنتُ قد عزمتُ على نشر هذه الرواية تحت اسم آخر.

وإن كنتُ أبغي بذلك أن أخفي أباها الحقيقي، فلم يكن بسبب أني خجل من الابن، وإنما لأن الكتب التي تحمل اسمي عليها لم تكن قادرة – ولا تزال غير قادرة – على الانتشار بحرية في «تشيلي» والبلدان الأخرى في أمريكا الجنوبية. ثم إن هناك سبباً آخر أيضاً، لك هو أن الرواية التي خطّطتُ لها تتحدَّث عن اختفاء الآلاف من الرجال، وبعض النساء، على أيدي البوليس السرّي لتلك الديكتاتوريات، فبعد أن كانوا يُعتقلون من منازلهم تحت جنح الظلام، أو يُقتادون من الشوارع في وضح النهار، ما كان لهؤلاء الرجال أن يظهروا ثانية أبداً. وكان أقرباؤهم يُترَكون، ليس فقط من دون أولئك الأحبة، بل أيضاً من دون أي معرفة مؤكدة عما إذا كانوا أحياء أو موتى.

أما أولئك «المفقودون» فهم لم يُحرَموا فقط من بيوتهم وحياتهم وأطفالهم، بل إنهم قد حُرموا أيضاً من قبورهم. إن ذلك يبدو وكأنهم لم يوجدوا أبداً.

إن رواية عن وضع كهذا، ما كانت لتحبِّب ناشراً إلى السلطات، تلك السلطات التي تمتلك القدرة والقوة لإخفائه هو أيضاً.

كنتُ قد مُنعتُ سلفاً من دخول تلك البلدان. وما كنتُ أريد لروايتي أن تُمنعَ هي الأخرى من دخولها، فقررتُ أن أكتب روايةً تحدُثُ ظاهرياً في اليونان، وفي فترة ما من القرن العشرين، ثم أنشرها باسم مستعار

اخترعته وهو «إيريك لوهمان». وقد كنتُ آمل من أن القرّاء سيقتنعون أن الاسم قد اتّخذ فعلاً قبل أربعين سنة في الدنمارك، تماماً حين أدرج اسم الكاتب نفسه في القائمة السوداء.

كانت خطتي تقوم على إصدار الكتاب أولاً باللغة الدانماركية أو الألمانية أو الفرنسية، ثم «يُترجَم» إلى الإسبانية. وقد أبدى عدد من الكتّاب البارزين استعدادهم لكتابة المقدمات أو لإعارة أسمائهم كـ«مترجِمين»، وبذلك يستطيع أن يترعرع ويشبّ في المكان الذي ولد فيه وينتسب إليه، في موطنه هو، وبين ذويه. ولم تكن هذه الخطة متكلّفة، كما قد يبدو للبعض، إذ كان نزلاء المعسكرات التشيلية قد تدبّروا أن يعرضوا مسرحيات كانوا هم أنفسهم كتّابها، متّبعين في ذلك طريقة بسيطة، وهي نسبتها إلى مؤلِّفين أجانب لا وجود لهم. فإذا كانوا هم قد استطاعوا أن يفعلوا ذلك خلف الأسلاك الشائكة، فكيف لا أستطيع أنا أن أفعل شيئاً شبيهاً بذلك من مقرّي الخاص حيث أتمتع بحريّة نسبية.

على أيٍّ حال، فقبل أن أبدأ، قمت بالاتصال بدار نشر معروفة لا تواجه أي مشكلة في توزيع كتبها في بلدان أمريكا اللاتينية. وتحمّس رئيس التحرير فيها للمشروع، لكنه وضع بعض التحفّظات حتى يطّلع على المخطوطة. كانت ملاحظته الوحيدة هي أن «أخفّف» قليلاً على الشخصيات العسكرية. وربما لأنني لم أستمع إلى نصحه، وربما لأسباب أخرى، فإني حين سلّمت النسخة الكاملة في نهاية المطاف، اختارت دار النشر ألا تغامر في طبع الرواية. وبإحجام هؤلاء عن طباعتها، أدركتُ أنّ لا أحدَ غيرهم سيلقي عليها مجرّد نظرة.

لم أتوقع قراراً كهذا الذي تركني في حيرة. لم يكن هنالك أي معنى لنشر الرواية باسم مستعار ما دامت فرصة وصولها إلى القرّاء الذين أردتُ الوصول إليهم مُوصَدة. إلا أنه لم يكن من الصواب في شيء أن أغيّر طريقة السرد الروائي معطياً إياه شكلاً معاصِراً وأكثر واقعية والتصاقاً ببيئة أمريكا اللاتينية. كنتُ أحبُ الرواية كما هي عليه. أما أن أضطرَّ إلى انتقاء كلماتي بحذر، أو أفْرِضَ على نفسي على أن أشهد تجربة أليمة ومباشرة من بعد، أن أجبرها على تجريب لغة قد لا يَسهُل اقتفاء أثرها وأسلوبيتها المعهودين لقرّاء ونقّاد أمريكا اللاتينية، ومن ثم معرفة أنها لغتي، أما هذا فقد بدا لي — إن أنا فعلتُ — أنني بذلك قد أسهمت في جعل كارثة المفقودين مأساة أكثر عمومية وشيوعاً. حيث يمكن أن تحدث في أي مكان وفي أي وقت، ولأي أحد.

إنه لمن سوء حظّنا أن هذه المأساة تحدث اليوم في «تشيلي»، في السلفادور، في جنوب أفريقيا، وفي الفلبين. لقد حدثت في الدانمارك بالأمس، ومن يدري أين ستحدث غداً. ما أحتاج إليه، إذن، هو القليل من الخيال من أجل تحرير الشخصيات وتبديل المناظر.

بيد أنه كان هناك سببٌ آخر لعدم رغبتي في تعديل تلك المخطوطة. ففي حين كانت الكلمات تنثال وتتدفق، وجدتني أقترب أكثر فأكثر من مؤلّفها الأوروبي الميت، مصغياً إلى هدوئه ورقّته، وقد استحوذ عليه غضبه الذي كان عليه أن يحتمله. وفي النهاية، كان كلُ ما تبقّى لي أن أفعله هو أن أقدّم للقارئ، الذي ربما يكون قريباً من الجنوب، هذه الرواية التي أتحمل مسؤوليتها، وبذلك، فإن من يقرؤها — أياً كان —

يستطيع أن يحكم إن كان بالإمكان أن يكتبها مناضل المقاومة الدانماركي ذاك، الأخ الأكبر ذو الأربعين عاماً، الأب الذي لم يُقدَّر له أن يرى ابنه أبداً، والذي أهدى إلى ذكراه هذه الصفحات التي تدبَّر أن يكملها قبل موته بأيام قليلة، وفي قارة أخرى – سيظلون يأتون، ويأتون لأخذ الرجال والنساء بعيداً عن أسرهم.

إيريل دورفمان

واشنطن، دي. سي.

أيلول / سبتمبر ١٩٨٢

تمهيد بقلم ابن المؤلّف

لم ألتقِ بأبي ألبتّة. جاءه رجال الجستابو في نيسان / إبريل ١٩٤٢، قبل ميلادي بشهر. ولعل حالة أمي الحامل في فترتها الأخيرة قد كانت لها صلة بعدم أخذهم لها أيضاً.

«إنه مجرّد استجواب روتيني»، هكذا قالوا لها، لكنها كانت تعرف أن الأمر ليس كذلك. كانت تعرف أنها لن ترى أبي ثانية أبداً.

وبعد الحرب ببضعة أشهر، استفسرت أمي نزلاء الحجز السابقين، الذين كانوا يرسلون إلى «الدانيز» عادة، غير أنه ما من أحد أظهر أنه قد التقى به.

وبعد سنوات، لما رحتُ أسأل أمي أسئلة محدَّدة عن الرجل الذي احتفظ دائماً بصورته إلى جوار سريري، عرفتُ عن أمر الرواية. من الأشهر السابقة لاعتقاله واختفائه، بل في الواقع، منذ اللحظة التي أدرك فيها على وجه اليقين أن شيئاً شبيهاً بي كان على وشك القدوم، عكف أبي في أوقات فراغه على كتابة عمل روائي. لقد أُخبرتُ أنه كان يتندر بشأنه قائلاً: إنه قد غرس أشجاراً كثيرة جداً، وأن هناك طفلاً يوشك أن يشرِّف عالَمنا المضطرب، وأن الشيء الوحيد الذي كان ينقصنا هو أن نكتب كتاباً، وفي أوقات كهذه، فلابدّ أن يكتب سريعاً، لأن المرء لا يعرف إلى وجه التحديد كم بقي أمامه من الوقت.

ويبدو أنه استطاع أن يَفْرُغَ من المسودة الأولى قبل أسابيع قليلة من مجيء فرقة «الجستابو» لاعتقاله، إلا أن أمي لم تتمكّن من قراءتها، بل إنها لم تدرِ – حتى – عن مصير المخطوطة شيئاً. واعتقدت، بطبيعة الحال، أنها قد ضلّت، أو انتهى بها الأمر إلى يد أحد الضباط الظلاميين في البوليس السري.

مهما يكن، ها نحن نعثر، ثانيةً، على الرواية بعد أن بقيت ضائعة أكثر من ثلاثين سنة. لقد عثرتْ عليها ابنة عم لي في قاع صندوق عتيق مكتظٍ بالأوراق القديمة والدوريات، حين كانت تستعد للانتقال من منزل الأسرة الريفي الكبير، الذي صار حينها جدُّ كبير عليها هي وأسرتها، بعد أن تزوج أولادها وبناتها. كنّا قد ظننّا أن أبي سلّم المخطوطة إلى أخته، عمتي «جرترودوس»، التي كان يرى أنها بحكمتها وسداد رأيها (وكانا توءمين)، لا يمكن أن تفرط بها.

لقد عرفنا أنها بعد بضعة أسابيع صارت مريضة، وفي حالة سيئة تثير الحزن، منذ اللحظة التي اعتُقل فيها أبي، ولاشك أنها لم تجد الوقت ولا المقدرة على إخبار أمي أو أي شخص آخر عن الرواية. ولما كانت عمتي قد توفيت في مرضها ذاك، فما من أحدٍ قد مسَّ تلك الأوراق طوال كل تلك السنين.

كانت الرواية مسبوقة برسالةٍ مختصرة موجَّهة إلى أمي وإلى المولود الذي كان مقدَّراً له أن يُولد، سائلاً إياهما - حال حدوث شيء - أن يسعيا إلى طباعتها كما هي، وإنما تحت اسم مستعار. كان يعتقد - طبعاً - أنها لابد أن تُوزع سراً مخالفة للقوانين. كان إصراره على استخدام قد نجم - بالتأكيد - من اعتقاده أن الاحتلال النازي كان سيدوم طويلاً، أو - ربما - كان لذلك علاقة بتواضعه الجم أو خجله، وهما صفتان مميزتان لأبي إذ طالما حدثني عنهما أصدقاؤه.

أياً يكن الأمر، فقد قررنا أن ننفِّذ رغباته وننشر الرواية باسم مستعار، على الرغم مما تتسم به من بناء مفكَّك، (إننا لا نعلم إن كانت هناك أجزاء مفقودة منها، كما يتضح ذلك في القسم العاشر). وإننا لنشعر أننا، بنشرنا للرواية، قد وفينا ذكراه بشيء مما تستحقه من الاحترام.

على أي حال، فقد أراد الناشر من ابن المؤلف أن يوضِّح ظروف بعض الأحداث الغامضة في الرواية، والتي لا يمكن أن تُفهَم من دون ذلك التوضيح.

وكما سيجد القارئ، فإن أحداث الرواية تتم في بلدٍ يشبه اليونان، مع أنه لم يُصرَّح به هكذا مطلقاً. لكنَّ الوضع التأريخي الموصوف فيها لا علاقة له ألبتة فيما كان يحدث في اليونان في الفترة نفسها. إن الحكومة اليونانية، المتعاونة مع محتلّي البلاد، لم تحتفظ بجيشها الخاص، كما لم تفعل ذلك حكومة الدانمارك، مع أن قوة بوليسها ومجموعات من جنود التنكيل المعارِضة قد ساعدوا في قمع الانتفاضات الشعبية أثناء الاحتلال الألماني. ورواية والدي تبدو – إن لم يكن من ذلك بدٌ – أكثر شبهاً بمزيج غريب عن فترتين سالفتين من تاريخ اليونان الذي أعقبها. ومع ذلك، فمن الواضح أن ما فعله أبي هو أنه نقل إلى بلد كاليونان قصةً كان من الممكن حدوثها أيضاً في الدانمارك، إذ إن لبلادنا جبال وتراث ثوار البلقان.

وطبقاً لما تقوله أمي، فإنه لم يحدث لأبي أن زار اليونان قط، ولا أي بلاد من بلدان البحر الأبيض المتوسط. لقد اختار مكاناً لأحداث روايته تلك المنطقة النائية التي عانت مأساة مشابِهة، فكانت أكثر ملاءمة لأن يعلِّق من خلال ذلك على ما كان يحدث حوله هو. ربما كانت الأحداث في النرويج والدانمارك، التي كان مُلمّاً بها على نحو جيد، أقرب إلى ما كان يحدث في الوطن، وأحرى بأن تستوعب رؤاه.

ولعل هذا الابتعاد يوضِّح – في رأيي – واحداً من أهم وقائع الأحداث الموضوعية في روايته هذه. إن البلد التي اختلقها ليست اليونان، بل هي مكان متخيَّل يعادل أوروبا كلها في تلك الحقبة.

إن الرواية، وقد كُتبت بين عامي ١٩٤١ و١٩٤٢، تُنذِر بما كان على وشك الحدوث، في بلده هو، في فرنسا، في هولندا، في إيطاليا، في

بولندا، في السنوات اللاحقة. بل الأكثر من ذلك، أنها أعلنت عمّا كان سيحدث في اليونان نفسها، بعد الحرب العالمية الثانية، وأثناء الحرب الأهلية. وأبعد من ذلك كله، هو أنها قد تصوَّرت – سلفاً – ما يحدث الآن، بعد عقود، في كثير من مناطق العالَم الثالث.

إني لآمل، كما تأمل أمي، أن نشر هذه الرواية يمكن أن يسهم، ولو بأدنى قدر، في الحدِّ من تكرار ما حُكي عنه هنا، والحيلولة دون حدوثه من جديد.

لقد كان لأبي القدرة على فهم وتمثُّل حزن أرملته وحزن ابنه الذي لم يكن قد أتيح له التعرّف إليه، ومن ثم التعبير عن هذا الحزن. ولعله يجدر بنا أن نتساءل اليوم عمّا كانت ستنتجه موهبة أبي وحساسيته، لو أنه لم يختفِ على أيدي أولئك الرجال الذين جاؤوا في تلك الليلة لأخذه.

سيرُقد لوهمان

الأسرة:

صوفيا انجيلوس

كارلوس مايلوناس: أبوها

ميشيل انجيلوس: زوجها

ديمتريو انجيلوس: ابنها الأكبر

سيرجي: ابنها الأصغر

هيلدا: ابنتها

كريستينا، روزا، ماريا: بناتها غير المتزوجات

ألكسندرا: زوج ديمتريو

فيديليا وألكسيس: توءمان، ابنة وابن ديمتريو وألكسندرا

يانينا: زوج سيرجي

سيرجي الصغير: ابن سيرجي ويانينا

الفصل الأول

-١-

- «تلك الذئبة العجوز.. مرة ثانية؟»

صاح القائد وكرَّر: «مرة ثانية؟»

- «نعم، يا سيدي. هي نفسها».

- «نفس المرأة. إن ذلك هو ما كنتُ أخشاه. أخبرها أنني لستُ هنا».

- «لقد أخبرتُها بذلك من قبلُ، يا سيدي. لقد أخبرتُها أنك لستَ هنا».

- «طيب؟»

- «بعد إذنك، أيها القائد. تقول: إنها ستنتظر حتى تخرج».

- «لكنْ، ألم تخبرها أنني غير موجود؟ أليس ذلك هو ما قلتُه؟»

- «إنها تقول إنها ستنتظر، وإنه ليس هناك سوى باب واحد، وإنه لابد لك أن تخرجَ من حيث دخلتَ. هذا هو ما قالته، أيها القائد».

- «والجثة؟ ذلك بسبب الجثة، صحيح؟»

- «ما زالت هناك، أيها القائد».

- «والنساء؟»

- «كذلك، أيها القائد. لا يزلن هناك، بالقرب من النهر».

- «لابد أن كل هذا هو بسبب الجثة، ابن الكلب. جثة أخرى. لابد أنه بسببها، ألا تعتقد ذلك؟»

- «إن أنتَ قلتَ هذا، أيها القائد».

- «إن أنتَ قلتَ هذا، إن أنت قلت هذا، أليس لك أي رأي يخصك؟ ألا تستطيع أن تتحدّث وتفكّر بنفسك؟ إن أنت قلت هذا، إن أنت قلت هذا، إني أسألكَ عمَّا تراه أنتَ؟»

- «نعم، يا سيدي. لابد أن كل ذلك بسبب الجثة، إن تلك المرأة تدّعي أنها جثة "ميشيل أنجيلوس"، وأنها هي الزوجة».

- قبل أن يجيب أخرج القائد سيجارةً وأشعلها.

- «زوجة؟ هي الزوجة؟»

- «هذا ما تدّعيه، أيها القائد».

- «وكيف استطاعت أن تعرف أنها الزوجة إن هي لم ترَ الجثة بعد؟»

- «لا أعرف، يا سيدي؟ اسألها إن شئتَ».

- «إنها – حتى – لم تذهب بعد إلى النهر، صحيح؟»

- «نعم، إنها لم تذهب، أيها القائد. فما إن علمتُ بأمر الجثة، حتى أقبلتُ مباشرة إلى هنا. تماماً كما فعلت في المرة الأولى».

نهض القائد ومشى نحو النافذة. النافذة الصافية كانت هي الشيء الوحيد النظيف على مدى أميال. وفي الخارج، حتى في هذه الساعة المبكّرة، كان الحرُّ شديداً يجفّف الهواء، ويعصره. ويشدُّه. مرَّت صبية مع حمار. مضى الاثنان ببطء، وتواريا. تلوّى الغبار الذي أثاراه، ببطء، قبل أن يستقر ثانية على الأرض. بدا أنه ما من أحدٍ قد مشى في ذلك الشارع.

- «حجرٌ نتن».

عضَّ القائد على هاتين الكلمتين حابساً إياهما تحت تنفسه. «لقد فُرِضَ عليّ أن أنقل هذا الحجر الحقير المنتن. أنتَ من هنا، أليس كذلك؟»

كان يعرف الإجابة من قبل. القائد «جيورجياكس» أعطاه التفاصيل قبل أن يخلي مسؤوليته عن هذه الوحدة. و«فيليب كاستوريا»، المالك لمعظم هذه الأراضي، والذي كان يعيش هناك في الجبال البعيدة، كان قد أوصاه، أيضاً، وبحماس خاص، بذلك الجندي المرافق. بيد أنه، خلال الأسبوعين الماضيين، لم يرد أن يقلّب في هذه المسألة، ولم يُرِد أن

يقرّ بأي انحراف أو إرباك في هذه البقعة البغيضة المجهولة. والآن، ها إن الأمر يفصح عن نفسه بعفوية.

- «من المنطقة، أيها القائد. لقد ولدت على بعد أربعين ميلاً من هنا، هناك في الطرف الآخر من الجبل. وقد وُظفت من قبل السيد "كاستوريا". لعلهم أخبروك».

انتظره القائد كي يواصل، لكنَّ الحاجب لم يقدِّم مزيداً من التفصيلات.

- «أربعون ميلاً»، كرَّر الضابط بالعاً الحر والضوء الساطع الآتي عبر النافذة، وتلك الجدران البيضاء تحت الشمس والصبارات الكسيحة، التي عفَّرها الغبار الأبيض، الشاخصة في انتظار أن تهب عليها نسمة عليلة، وحتى تلك الظلال الطباشيرية.

- «إذن فأنت تفهمهم؟» أنتَ تفهم أولئك الناس، أم إنك لا تفهمهم؟

- «نوعاً ما، أيها القائد».

- «نوعاً ما؟»

- «إنني أختلف عنهم، أيها القائد. بعد إذنك، أيها القائد، ولكنني لا أظن أني سأقضي حياتي كلها هنا».

لم يلتفت القائد.

- «إذن، فهذا هو حجر حقير منتن بالنسبة لك أنتَ أيضاً».

- «لن أعيش هنا حياتي كلها، يا سيدي، إذا كان هذا هو ما تقصد».

- «طيب. والآن، سوف تقوم بشيئين اثنين: أولاً، ستفتح المروحة. هذا أول شيء ستفعله وثانياً، ستخرج وتنصح تلك الحَيزَبون بأنني لن أقابلها لأنه ليس لدي وقت، إنني مشغول اليوم وغداً أيضاً. ولسوف تقنعها أنه سيكون من الأفضل لها لو أنها تعود إلى البيت وتُعنى بأغنامها أو بأي شيء كان، لأنه لا ينبغي لي أن ألوّث حذائي بهذه الطريقة، مفهوم؟»

- «نعم، يا سيدي».

مضى الحاجب نحو المكتب وفتح المروحة. سمع القائد أزيز الجهاز، وبعد ثوانٍ معدودة شعر بلمسة هواء تضرب كتفيه الناعمتين، وتبدَّد رضاه عن فورة غضبه العابرة. استدار متشككاً ويداه خلفه، ثم مضى عائداً إلى إلى المكتب.

وفي تلك اللحظة، فتح الحاجب الباب، ولوهلة، التقط القائد لمحةً خاطفة لهيئة قابعة في السواد في ركن غرفة المدخل الملاصق. وتذكّر تلك النظرة التي تطلّعت بها إليه في مقابلتهما الأولى، في اليوم التالي لمجيئه لتسلّم منصب قائد الفرقة. بدا له ذلك غير واقعي، أسبوعان منذئذ، أسبوعان في هذه المدينة المنسية المنتنة. كان على وشك أن يحدِّد يوماً يخرج فيه لزيارة «آل كاستوريا» وليستمتع قليلاً بمذاق الحضارة، إذ ليس بمقدوره أن يحيا على هذه الشاكلة.

انغلق الباب.

استحضر في ذهنه خيال تلك المرأة العنيدة العجوز. لعلها قد غادرت المبنى. وأجلست نفسها على بعد خطواتٍ منه، تنتظر هناك الصباح بطوله، وطوال بعد الظهر، والليل بأكمله، تماماً كما فعلت في المرة السابقة، من دون أن تتزحزح بوصة واحدة، ثابتة كالتمثال، قطعة من سَقْط المتاع يندر أن تتحرّك تلك المرأة العجوز وكل النساء العجائز أمثالها لابد أن يُقضى عليهن، لابد أن يكدسن كالأحجار في المبقرة.

- «وتلك المرأة؟» كان القائد قد سأل قبل أسبوعين حين مرَّ بها وهو في طريقه إلى المبنى، ثم وهو خارج منه، وأخرى وهو داخل كرةً أخرى.

- «إنها هناك منذ يومين، أيها القائد، وهي تردِّد أنها تريد أن تراكَ. لم تعترف بالجهة التي أحلناها إليها. كانت ببساطة هناك، أمام بوابة مركز القيادة يقظةً، محترسةً، فمها مزموم بشدة، غارقةً كليةً في ردائها الأسود، كأن لم يغمض لها جفن طوال الليل».

- «لسوف نفرغ من هذه المسألة على وجه السرعة».

قالها القائد بصوتٍ عالٍ، بحيث سمعه كل مرؤوسيه.

- «ماذا تريدين؟» سأل بإلحاح وخسّة عن المراد، عازماً على وضع الأمور في نصابها بضربة واحدة.

- «أريد أن أدفن أبي. أبي "كارلوس مايولاناس".»

- «ادفنيه، إذن. ما شأني به؟»

- «لقد دفنه الجنود سلفاً». قالت برتابة: من دون أن ترفع عينيها، كما لو أن القائد ما كان ليصدقها بأي حال.

تردَّد القائد لبرهة. كان منتبهاً للحاجب المتصلّب إلى جواره، وللرقيب والحارسين عند المدخل. لم يكن الوقت ملائماً لمعرفة تاريخ القضية. كان عليه أن يُظهِر حزمه وسطوته الكاملة، الآن.

مضى إلى حجرة الانتظار بخطوتين واسعتان وصل بهما إلى باب مكتبه الخاص. ومن هناك استدار وأشار بحدة، بلا مبالاة، إلى المرأة إلى أن تتبعه إلى الداخل. وبينما كان يحاول أن يريح نفسه في مقعده، دخلت هي تجر نفسها مثل ظلٍّ.

- «حسناً». قال القائد: «لقد دُفِنَ، إذن. ولذا فما عاد هناك شيء لتقلقي عليه».

قالت:

- «لا».

انتظر للكلمة التالية، لشيء ما، غير أن ذلك النفي تدلّى هناك وحيداً بلا صدى. لم يكن لدى المرأة مزيد بيان.

قال القائد بنفاد صبر:

- «أنا لا أفهم. أدُفِن أبوك أم لم يدفن»؟

- «الجنود دفنوه، لكني لم أدفنه».

- «ألم تكوني موجودة»؟

- «الجنود فقط».

وعلى حين غرّة، تبين القائد ما كان يضايقه في هذه المرأة العجوز، فإضافة إلى شاربها الكريه القصير النامي، بشكل منفّر على شفتها، وإضافة إلى انحناءة رأسها الطفيفة تلك، التي منحت شزرتها[1] ومضة ماكرة حقوداً، إذ لم يكن يرمش لها جفن أبداً. لم يحدث أن أبصرها تغمض عينيها لثانية واحدة: كانتا مفتوحتين، أكبر مما يمكنكَ أن تتوقّعه لشخصٍ في مثل عمرها. تينك الحدقتان المتجعّدتان، كانتا تتّقدان بغضب صامت، ينبعث من الشال الأسود، والبشرة الذاوية، وذينك الجفنين المتحجرين.

– «وكنت تتمنين أن تكوني حاضرة، أهذا ما تحاولين أن تخبرينيه؟»

قالت بتروٍّ شديد:

– «ليس للجنود أي حق في أن يدفنوا أبي».

تأكّد للقائد فجأة أنه لم يشعر فقط بالارتباك. بل لقد شعر أيضاً – وكأن ذلك مستحيل، إذ من أين يمكن أن يأتيه مثل ذلك الإحساس؟– شعر بالتهديد كما لو أن شخصاً ما، هنا أو في أي مكان كان، يحيك له خدعة. إن أبا هذه المرأة هو – على الأقل – في السبعين، وربما أكثر. وما كان لهذه المسألة أن تصير مشكلة تدعو لأن يقلق الجيش بشأنها.

رنَّ الجرس بحركةٍ قلقةٍ مهزوزة.

– «نعم، أيها القائد؟»

أنعم النظر في الحاجب. وفقاً لما قاله «جيورجياكس» فإنه يساوي وزنه ذهباً. يعرف مراوغات السكان المحليين، رجل موثوق من قبل «فيليب كاستوريا» استشره حول أي شيء. إنه لم يخذلني قط، والقرويون لا يحبونه، لكنه ولد قريباً من هنا، ويعي جيداً ما يدور في رؤوس هؤلاء المتوحشين.

---

1 – الشزر: نظرة الإعراض أو الغضب أو الاستهانة.

- «ادعُ الملازم "كونستانتوبولس"».

ألقى الحاجب نظرة عجلى على المرأة، ثم على القائد محيياً. هل ارتسمت ابتسامة طفيفة على شفتيه؟ ورأى القائد أن يغض النظر عن ملاحظته هذه. تعوزه الثقة اللازمة بنفسه حين يريد أن يسأل المزيد من المعلومات المطلوبة ولم يقصّر عليه في المسؤولية إلا يوم واحد. ربما ينظر في ذلك فيما بعد. قال للمرأة:

- «لسوف نستشير الملازم».

لم تَرُدَّ. لكنه لم يكن يرغب في أن يترك الأمور على ذلك النحو، إنه يريد أن يفرغ من هذه القضية.

- «لأنك لا تريدين أن تخبريني بأنك لم تجدي الوقت الكافي للاستعداد لدفن أبيك».

- «لقد أخبرت القائد "جيورجياكس". لكنه لم يُعِر الأمر أدنى اكتراث. بل أمر بدفنه مثل أي مجهول».

قرر القائد أن يهملها..

تشاغل بالتقارير التي على مكتبه. كان الوضع في حقيقة الأمر هادئاً تماماً. ولم تعد هنالك أي مصادمات استكملت إجراءات التطهير تقريباً. أعداء الفرقة المحدودون أولئك القلائل الذين لا يزالون مبعثرين هنا وهناك، يبدو كأنهم أوقفوا نشاطاتهم. ومرة أخرى، قرأ التحليل الذي لخص به القائد «جيورجياكس» تقريره. كان التخريب ينتقل ببطء إلى المدن الأكبر، على الرغم من أن هناك احتمالاً مؤكَّداً بأن تسجل الأسابيع القادمة آخر ظهور لأعمال العنف، وربما لاجتماعات مصغرة في المدن والقرى وفي خارجها. ليس بمقدورك أن تتأكد من التكتيك الذي قد يستحدثه العدو. وأياً كان الحال، فإن التقرير يترك للقائد الجديد منطقة آمنة من كل إرهاب مسلح، منطقة حُكمت بيدٍ من حديد، محروسة بدوريات مدرَّبة، وسكان لا مثيل لهم إلى شيء سوى الإذعان

والطاعة، أما المراكز الحقيقية والمحتملة للثوار فقد طُهِّرت وقُلِّصت إلى حد بعيد، والوضع العسكري تحت السيطرة الكاملة..

وكانت مهمة القائد الجديد — وفقاً لما تقتضيه الخطة العامة للحكومة — هي أن يفوز بالتعاطف مع السكان، ويبدأ بتأسيس قاعدة فعّالة للتطوّر الاجتماعي والاقتصادي، والشيء المؤكَّد الوحيد الآن هو أن عناصر الشغب قد استُنزفت قواها بسبب الهزائم المتلاحقة.

- «صباح الخير، أيها القائد. بعد إذنك».

ظهر الملازم «كونستانتوبولس» ببدلته النظيفة، لا تقطر منه نقطة عرق واحدة، متصلّباً كالسهم. إنه يبدو كأبيه، وإنه لمن المدهش كم يشبه الجنرال! فمنذ الآن يستطيع المرء أن يلحظ الملامح الصارمة للأسرة العسكرية، موهبة الأمر الموروثة تنبع من يديه، ومن كتفيه القويتين المربَّعتين، من دقات حذائه الشديدة الانضباط على الأرض.

- «صباح الخير، أيها الملازم».

- «هل طلبتني، أيها القائد»؟

لم تلامس عينا القائد الباهتتان الهيئة السوداء أدنى ملامسة، تلك المرأة الواقفة بعناد في البقعة نفسها التي وقفت فيها منذ دخلت. ما من شك أنك ستقول: إنها تمثال نُحِتَ من الحجر الأسود لولا عيناها الثابتتان المتّقدتان، وكذلك الشفتان اللتان تتحرّكان من تلقائهما وهي تتحدث، بصورةٍ مستقلة أشبه بشفتي الدمية.

أومأ القائد نحوها بلطف وكأنه يقول، وهذه؟ ما الذي يمكنك أن تخبرني عنها؟

- «لقد جاءت هذه المرأة لترفع شكوى بشأن دفن أبيها. سيكون لطفاً منك أن تشرح لي هذا الأمر».

زمجر صوت الملازم حازماً، خشناً، لا مبالياً:

- «ليس أباها، أيها القائد. بل إنه لم يكن حتى من أقربائها».

تأملها القائد ليرى ما يكون ردّها، إلا أنها بدت كما لو أنها قد سمعت هذه الكلمات من قبل، فهي الآن لا تعني لها شيئاً. ولا تستحق أن تضيع الوقت في سماعها والرد عليها. وتلك هي الطريقة التي يوفّر بها الناس هنا طاقاتهم. لقد تعلّموا أن يفعلوا ما هو ضروري، تماماً، حتى يتسنى لهم العيش في هذا الحر، على هذه الأرض الجدباء.

- «طيب، طيب» نبح القائد بشبه سخرية: «وما قولك في هذا»؟

وفجأة قامت المرأة العجوز بحركةٍ غير متوقّعة هي غاية في الدهاء واللباقة، ومن دون أن تنبس ببنت شفة، جلست على الكرسي المواجه للمكتب، تاركة الملازم وراءها، من جهة اليمين. ثم سحبت الكرسي بضع بوصات واتكأت على مكتب القائد. وحين تحدّثت كان صوتها خفيضاً. كان من الواضح أنها لا تريد الملازم أن يسمع، على الرغم من أن نبراتها المبحوحة يمكن سماعها حتى حجرة الانتظار.

- «هل تعتقد، أيها القائد، أنني لا أستطيع أن أتعرف إلى أبي»؟

تدخّل الملازم بسرعة:

- «لقد اكتُشفت الجثة وهي طافية في النهر. وجدتها النسوة عند الفجر حين ذهبن لغسل ملابسهن. وقد كان من العسير تماماً التعرّف إليها. لم تكن هناك أي علامة تدل على هوية صاحبها».

- «والبصمات؟» سأل القائد، مع أنه كان يفكّر في أشياء أخرى، وقد خرج السؤال بصورةٍ أقرب إلى العفوية البحتة.

- «لقد بقيت الجثة فترة طويلة في الماء، أيها القائد».

- «وملامح الوجه، ألم يكن من الممكن تمييزها؟»

تلفّظ القائد بهذه الكلمات، ببطء، من دون أن يقدر على صرف عينيه من النظر في المرأة العجوز.

- «كان الجسد والوجه قد شوّها تماماً بوساطة صخور النهر، أيها القائد. إن الجثة بقيت فيه عدة أيام. لا بد أن أحداً قد ألقى بها عند بوابة النهر لأسباب لا نعرفها».

- «والجثة، ألا تظهر أي علامات عنف أخرى؟»

أشار الملازم إلى مجموعة من التقارير التي لم يفتحها القائد بعدُ:

- «كل شيءٍ مدوّنٌ هنا، يا سيدي، لقد قرَّر القائد "جيورجياكس" حين عجزنا عن التعرّف إلى الميت بوضوح أن يدفنه بأسرع ما يمكن لكي يمنع التلوث والمخاطر الأخرى المحتملة».

- «وهي»؟

- «هذه المرأة طلبت مقابلة القائد "جيورجياكس" الذي وافق بكل طيبة على طلبها. وكان من المدهش لنا، أنها أعلنت أن الميت هو أبوها، وأنها تريد أن تدفنه. على أي حال، هي لم تتقدَّم بأي دليل يثبت صحة ما تقوله. ولم يكن أمام القائد "جيورجياكس" أي خيار إلا أن يرفض دعواها. بعد إذنك، ياسيدي، لقد شعر أن ذلك يمكن أن يكون محاولة تخريبية، لتحريض أعداء الجيش، إذ تتحوَّل جثة مجهول ما إلى جثة شهيد أو بطل».

- «بالطبع». وافق القائد على كلام الملازم، «أو إن رجال العصابات كانوا يصفّون فيما بينهم حساباتهم، كعادتهم حين يتعرّضون للهزيمة. لقد حدث ذلك في منطقتي أنا».

- «هذا هو ما فُسّرتْ به الحادثة، يا سيدي. وفي وقتٍ كهذا، لم يكن من المستحسن المخاطرة بإقامة جنازةٍ اعتيادية».

وضع القائد التقرير، وشبَّك أصابعه بعنف حتى بدت بيضاء.

- «طيب، طيب. وما رأيكِ في هذا، أيتها السيدة؟»

- «لقد عشتُ مع أبي طوالَ حياتي، أيها القائد».

نهض القائد بعنف. شعر بضخامته، وكان مدركاً أن حذاءيه يلمعان بأناقة، وأن عضلاته وأعصابه تتدفق حيوية ونشاطاً، حزامه أنيقٌ مُحكم، ورئتاه تستنشقان الهواء بيسر، وبدلته مضبوطة عليه بشكل تام.

قال القائد:

- «وإذا كنتِ تحبين أباك حباً جمّاً، فلماذا لم تعتنِ به؟ لماذا لم تكوني إلى جواره وقت وفاته؟»

وبسرعة لم يتوقعها أحد، أخرجت المرأة العجوز من ثوبها الأسود قلادة. كان فيها صورة دامسة منذ مطلع القرن، وضعتها على الطاولة، مُحترزة ألا تنفك عن سلسلتها. كانت تتشبّث بتلك السلسلة مثل نمرة.

- «هذا»، قالت - كما لو كان ذلك شرحاً وافياً - «هو أبي».

ألقى القائد نظرة غير مكترثة إلى الصورة. فلاح شاب مثل كل الآخرين العديدين، خُلِّد في لحظة كئيبة. لقد كان من الصعب حتى أن تجد فيه شَبَهاً ما بالعائلة. في سنوات التحوّل والتقتيل ورحيل الكثيرين، ما الذي يمكن أن نجده سوى القليل من تشابه الأجواء الغامضة. كانت هناك دائماً - بطبيعة الحال - فرصة للمزاح مع الملازم حول ذلك التشابه الوحيد الملحوظ. إنه الشارب، الذي ظهر عند الأب أغلظ وأكثف.

- «هذه الصورة»، قالت المرأة العجوز من دون توقع: «أُخذتْ في اليوم الذي وُلدتُ فيه».

لوّنتْ فورة غضب طافحة نبرات القائد وهو يقول:

- «اشرحي لي، إذن، كيف يمكن أن يظهر رجلٌ في مثل هذا السن في النهر، فقط أخبريني بذلك. ما الذي كان يفعله أبوك حتى انتهى - بناءً على كلامك - مرمياً في النهر؟»

التقطت العجوز القلادة، لكنها لم تقفلها أو تضعها جانباً، بل أبقتها مدلاّة في الهواء من تلك اليد النحيلة، وأخذت تتمايل كأن نسيماً خفيّاً هو الذي يؤرجحها.

تابع القائد حركة القلادة لبرهة.

- «لقد أخذوه مني، يا سيدي. لقد أخذوه في ليلة من الليالي. قائلين: إنهم سيعيدونه بعد ساعات. وها هو قد انقضى أكثر من عام منذ ذلك التاريخ، يا سيدي».

قاطعها الملازم، من دون أن يترك رنين كلماته مجالاً للجدال:

- «لقد كان هذا "المايلوناس" عنصراً خطراً شهيراً، سيئ السمعة، أيها القائد. اعتاد أن يثرثر في الحانات، في المقاهي، في السوق. وقد حُذِّر مراراً وتكراراً بأن ما كان يقوله يمكن أن يجرّه إلى المشكلات. لكنْ شيئاً لم يحدث، مراعاة لعمره. ومع ذلك، فقد ظهرت أسرته ذات يوم أمام القاضي وأعلنت اختفاء هذا الرجل. قالوا: إنه اختُطف. وقد أجاب القائد "جيورجياكس" على طلب مكتوب من المحكمة بأننا في هذه الوحدة ليس لدينا أي علم فيما يخص اختفاء أي أحد بهذه المواصفات».

أشار الملازم إلى القلادة، والصورة والوجه الذي التقط منذ نصف قرن. أخفت المرأة القلادة بسرعة في ثيابها.

- «بعد ذلك، لم نُولِ المسألة اهتماماً. وكما تعرف من خلال خبرتكَ الشخصية، أن هذه الأَنواع من الناس غالباً ما يستخدمون أساليب مشابهة ليقوموا بنشاطات سرية. إنهم يختفون لفترة. وفيما بعد يَقتلون بعضهم البعض، أو يهاجمون البوليس، أو يتعرّضون للحوادث، وعندئذٍ يحاولون أن يلقوا المسؤولية على الحكومة، أو على حلفائنا».

فتح القائد الدرج الأعلى للمكتب، واستقرت عيناه لوهلةٍ على صورة شخصية لامرأة مع ثلاثة أطفال، إن زوجه تنتظره في العاصمة، عندئذٍ، أخذ ورقة من الأوراق وأغلق الدرج.

- «هل تعرفين ما هذا، يا امرأة؟ إنه قرار العفو العام. لقد صدر حديثاً. فإن كان أبوك قد تورّط في مشكلات مع الحكومة في الماضي، فليس هناك ما يخشاه الآن. هذا القانون يخوِّله أن يستسلم من دون أي مزيد من المضايقة وأعمال الشغب».

وجاءهم صوت المرأة العجوز من زمنٍ آخر، من حَنجرة أخرى، كأنها كانت تعيد شيئاً كان قد رُدِّد من قبل منْ دون جدوى، وكأنَّها هي أو أي شخص آخر عليهما أن يختلقا يوماً – لم يعرف بعد – من جديد، في هذا البلد أو في غيره:

- «لقد شرحت للقاضي أننا بعنا ماعزاً لكي نقوم بالرحلة. لقد شرحت له في ذلك العمر، أخبرني، في ذلك العمر، هل تعتقد أنه سيخرج للجبال يتسلقها ويلعب الألاعيب مثل أي شاب؟ لعلكم ستتهمونني أنا أيضاً بأنني خطرة، أنا، المسيحية المؤمنة التي تهتم بشؤونها ولا شأن لها بالسياسة».

أيتها الذئبة العجوز! كانت تحاول أن تضعه في موضع الحَكَم، وأن تجعله يختار بين رواية الملازم وروايتها هي. إنها أدهى مما يبدو عليها. وكان عليه أن يأخذ بنصيحة «جيورجياكس». كان عليه أن يثق أكثر بالحاجب. والآن، من الضروري أن تنتهي هذه المسألة. هنا تماماً. وفي الحال.

- «سيدة "أنجيلوس". واجب الجيش هو أن يخدم الشعب. إننا نحاول أن نرسي أفضل العلاقات الممكنة مع الجماهير. لكنَّ، عليَّ أن أنصحك بأني مشغول. لقد وصلتُ قريباً إلى هذه البقعة، وهناك العديد من القضايا الملحّة التي عليَّ أن أهتمّ بها. أخبريني باختصار، ما الذي تريدين مني أن أفعله؟ ولماذا أتيت إليَّ؟»

نهضت المرأة العجوز ومضت نحو الباب. ومن هناك استأذنت بالخروج، مُدركة أنه لن يسمح لها، قالت:

- «ببساطة شديدة، ياسيدي، أريد من جنودكَ أن يعيدوا لي الجثة».

- «أن يعيدوها؟ أن يخرجوها من القبر؟»

اهتزَّ رأسها نصف اهتزازة.

حينئذ، رفع القائد، في تلك اللحظة منذ أسبوعين، صوته، وغمز قليلاً للملازم الذي في الزاوية، كأنه يريد أن يهمس: «هذا هو ما أوصلني إليه التعامل بلطف مع نساء عجائز مجنونات. لكنَّ ذلك لن يتكرّر، أقسم أنه لن يتكرّر ثانيةً. أبداً».

- «لقد اتخذ القائد "جيورجياكس" قراراً بهذا الشأن، وأنا أحترم ذلك القرار وأؤيده. اسمعي. من المحتمل أن أباك حيٌ يرزق. تصوّري مجيئه إلى المدينة غداً، وعلمه بأن الجيش قد وافق على جنون كهذا.

هـذا غـير ممكـن، هـل تفهمـين؟ لا يمكنـكِ أن تخلطـي بـين ديانتنـا وبـين الشعوذة».

- «مفهوم، أيها القائد». تنفست المرأة العجوز بصعوبة: «من الواضح أنكَ لستَ مسيحياً». وحدَّقت فيه من الأعلى إلى الأسفل بتينك العينين المتفحِّمتين اللتين لا ترمشان؛ «لسوف أخبركَ بشيءٍ ما، أيها القائد». وأشارت بإبهامها صوب النافذة وجعلتها تهتزُّ: «هناك في المقبرة، على التل، قبر، هو قبر أمي. "كارلوس ماليوناس" أبي، يستحق جنازة يبتسم لها الرب، يا سيد، جنازة عادية. لا يهمني كم عليّ أن أنتظر، فلسوف أفعل له ذلك في يوم ما. لسوف أدفنه بصحبة قس، وباسمه هو. وبكل حروف الاسم الذي أسمانيه من قبل أن أتزوج وأنجب أطفالاً. هناك، على التل، في المقبرة، إلى جوار قبر أمي، في المكان الذي سأدفنه فيه».

أغلقتْ الباب وانصرفتْ. قال الملازم بعد برهة:

- «انتظر. إنها لم تخبركَ بعد عن بقية الأسرة».

- «البقية؟»

- «بقية الأسرة. الرجال على الأقل. قبل ستة أشهر مما حدث لوالدها، حدث مثله لزوجها ولاثنين من أولادها، إذ أُخذوا بعيداً. إنهم لم يظهروا حتى الآن».

حدَّق القائد في الباب الموصد، وكأن المرأة لاتزال واقفة هناك. أخذ علبة سجائره، وقدَّم واحدة إلى الملازم الذي رفضها راسماً على شفتيه ابتسامة ذاوية، وكأنه يقول: «شكراً، يا سيدي، ليس لي، لكنْ شكراً على كل حال».

أشعل القائد السيجارة:

- «قبل ستة أشهر. إذن، أظن أن علينا أن ننسى هذه الانفجارات العاطفية المفاجئة. والآن. ما رأيكَ، أيها الملازم؟»

ظلّ الملازم صامتاً، ولم يقل شيئاً.

-٢-

على بعد مئة ياردة، حيث تبدأ طريق نحو الأسفل، وجد الملازم الدكتور منتظراً، كان يدخّن في صمت في ظل سروةٍ قصيرة ممتدة الفروع، يتأمل من خلال الدخان بقعة ما من النهر المدمدم غير بعيد منه، وكذا في مجموعة النساء المنتظرات هناك في الأسفل.

نهض الدكتور وهو يرمي بعقب السيجارة المحترق قائلاً:

- «ظننتُ أنني قد ابتعدتُ».

- «لا يبدو عليكَ أنك في عجلة». لاحظ الملازم مضيفاً: «لكنَّ الرجال الموتى لا يفرّون، فلماذا نستعجل، إذن»؟

- «جثة أخرى، في المكان نفسه، يصعب عليَّ أن أصدّق ذلك».

ردَّ الملازم:

- «ستصدّق عندما تلمسها. هيا بنا».

أشار الملازم للجنود الأربعة أن ينزلوا أولاً. بقيت النساء — كان هناك ثمان أو تسع — على بعد مسافة محدّدة من الجثة، مشكّلات ما يشبه أن يكون نصف دائرة محترسة غريبة. كنَّ كلهن في ثياب الحداد، باستثناء طفلةٍ صغيرة، كنَّ كلهن بلا حراك، كأنّهن شجيرات غَرسهنَّ أحدٌ ما قبل قرونٍ متوقّعاً هذه اللحظة: جثة رجل ملقى. وجهه إلى الأسفل على شاطئ الأحجار هذا.

حين صار الملازم والدكتور والجنود الأربعة على بعد عشرين خطوة، تحرّكت المجموعة وكأنها استعادت الحياة، سرت موجة من الحركة البطيئة أشبه بانسياب ماءٍ إلى بركة استقرَّ في قعرها، يخرخر مترقرقاً وكأن لا بداية له، ولا نهاية.

تقدّم الملازم شاقّاً طريقه يتبعه الدكتور والجنود. قال بصوتٍ عال:

- «هذا النهر ملآن بالمفاجآت. لا أعتقد أن أحداً قد حرّك الجثة، صحيح»؟

وبما أن واحدة منهن لم تجب، فقد كرّر السؤال بتشديد أكثر: «هل حرّك أحدٌ الجثة، نعم أم لا»؟

هزّت النساء رؤوسهن بالنفي.

- «ومن منكن التي وجدتها؟»

كانت هناك نظرة جماعية، شاملة، ضمنية، متعدّدة الإشارات، تومئ إلى الكل وإلى لا أحد، تراقصٌ صارمٌ للأيدي والأكتاف والتنانير السوداء الملتصقة ببعضها في مواجهة خطر النهر، حركة هي تلك التي سرت فيهن ثم توقفت. كلّهن، هنّ اللائي وجدنها معاً هذا الصباح.

جثم الدكتور بجانب الجثة. ومن دون أن يلمسها – حتى – قال:

- «إنه ميت، لا شك في هذا. إنه ميت منذ عدة أيام، على الأقل».

- «دكتور» صاح الملازم: «إننا جميعاً نشاهد ذلك، آمل أن تقدر على إعطائنا قليلاً من معلومات أكثر تحديداً».

- «لا بد من قلب الجثة».

- «طيب، افعل».

نادى الدكتور أحد الجنود وأراه الجهة التي يريد أن يقلب الجثة نحوها.

لم تقل النساء شيئاً حين أبصرن الوجه، أبصرن ما تبقى من مادة كانت ذات مرة وجه الجثة، متفسِّخة متلاشية، بما تعرّضت له من سحقٍ وارتطام وتنقيع.

- «هيه، أنت».

فجأة، صاحَ الملازم بالطفلة الوحيدة في المجموعة، والتي وقفت بمنأى عن النساء لأنها لم تكن ترتدي السواد.

- «تعالي، هنا».

اقتربت الطفلة قليلاً خجلة مطأطئة الرأس، مخفية عينيها .

- «هل ألقيتُنَّ جميعاً نظراً على الوجه؟ هل نظرتُنَّ إلى وجه الجثة؟»

ردّت الطفلة:

- «لا أدري، يا سيد».

- «لا تدرين؟ كيف؟ ألم تجدي الجثة، أنت وأولئك الأخريات»؟

- «لا، يا سيد، لقد دعونني فيما بعد».

- «مَنْ التي دعتك؟»

أشارت الطفلة إلى امرأة تقف على يسارها، شبيهة بكل الأخريات، باستثناء – ربما – قوة أكثر بادية على كتفيها، كما أنها أقل حزناً .

مشى الملازم نحوها، وسألها :

- «أأنت وجدت الجثة»؟

لم ترد المرأة. وظلّ اهتمامها منصباً على يدي الطبيب، اللتين شرعتا في نزع ما بقي من الثياب على جسد الرجل الميت، متحسِّستين ومتفحصتين إياها . وهما تمزقان القماش بمساعدة أحد الجنود .

- «أجيبي، هل وجدتها؟»

هزّت المرأة رأسها، من دون أن تحوّل عينيها عن أصابع الطبيب البارعة.

- «نعم، يا سيد . مع الأخريات، يا سيد».

- «وكلكن أبصرتن الوجه. هل استطعتن التعرّف إليه؟»

ترددّنَ. وكشفت يدا الدكتورعن جذع الرجل. وبشكل لا يصدّق، على جرح صدره الفاغر، وفي جسده المزرق، وفي قفصه الصدري المهشَّم، لا يزال باستطاعتك أن تبصر شَعراً، شَعراً غزيراً يغطي ساعديه وبدنه .

قال الدكتور:

- «أعتقد أن ذلك يكفي. لا حاجة لنزع السراويل».

قال الملازم:

- «انزعها».

- «إن نزعها غير ضروري للكشف الأساسي».

- «انزعها. إن ذلك سيساعد على التعرّف إليه، أنت عارف، في مثل هذه الحالات..».

قالت المرأة بغتةً:

- «نحن لا نرغب في ذلك».

- «ألا تريدين أن تري وجهه؟»

- «لا، يا سيد، في المرة السابقة..».

- «هل كنتِ أنتِ التي اكتشفتِ الآخر أيضاً؟»

أشارت المرأة صوب الأخريات.

ولبضع دقائق، ساد صمت مطبق. نظر الملازم إلى يدي الدكتور المرتعشتين الرشيقتين، ثم إلى المجموعة الذاهلة في نصف دائرتها، كأن النساء كنّ يتفرّجن على مشهد مسرحي، أو يمثّلن فيه، من دون حراك، تاركات نسيم الصباح الخفيف يسهم في صنع الحركة الوحيدة مرفرفاً بتنانيرهن الكسلى تلك، كاشفاً لثانيةٍ ما فخذاً من الأفخاذ، أو عقباً ما خلال نفاذه.

- «ثم ماذا يا دكتور، ما قولكَ؟ هل باستطاعتكَ أن تحدِّد سبب الوفاة؟»

لم ينهض الدكتور، ولا حتى رفع بصره، بل ظلّ يحدّق فيما حواليه:

- «من دون تشريح، سيكون من العسير أن نقوم باختبار مهني، أيها الملازم. الماء في الرئتين، وأشياء مثل هذه. لكنه قد ضرب ضرباً مبرحاً يكفي لقتله مراتٍ عديدة».

- «النهر؟».

رد الدكتور وهو يعمل أصابعه في التفتيش:

- «ليس النهر فقط. الحروق، الكدمات، الأورام، العظام المهشّمة - كارثة. يبدو لي أنه قد ضُرب ضرباً قاسياً قبل أن يُلقى به في النهر. وقد كان الميت جائعاً جداً، أيها الملازم. تأمّل جيداً هذه الضلوع وعظام الفخذين».

قال ذلك، ومرَّر أصابعه على تلك الأجزاء، كأنه يلقّن درساً في التشريح.

اقترح الملازم قائلاً بلطف:

- «أعتقد، يا دكتور، أن النهر وحده هو المسؤول. ألا تظن ذلك؟»

وقف الدكتور. قال:

- «لقد أخبرتكَ سابقاً بما أعتقده. لكنْ، إن كنت تفكر بشيء غير ذلك، فأنا لستُ ذاك الذي يعارض رأيكَ».

- «إني أعتقد بغير ذلك. وأنت على صواب. إنكَ لستَ ذاك. إنكَ ببساطة في خدمة جيش الوطن لمدة عام، ولأننا في حاجة إلى شعوذاتك الطبية».

- «من دون تشريح، من دون أي أداة ضرورية...».

- «ليس هناك من داعٍ للتشريح».

- «إن كنتَ تقول ذلك».

- «إنني، في الواقع، أقول هذا، وماذا عن موضوع الهوية؟ أي علامات»؟

- «في حوالي الخمسين من العمر، يزيد أو ينقص قليلاً. فلاح. شعره أسود مجعَّد. لون العينين، من المستحيل أن تحدده، لكننا نستطيع أن نفترض بأنهما كانتا سوداوين. جسمٌ لوّحته الشمس، قدرٌ كبير من الشمس، فلاح، انظر إلى هاتين اليدين. فقير، جائع جداً. يوشك على الهلاك، كما قلت. أي شيء آخر؟».

- «وفي جيوبه؟»

- «لا شيء».

اقترب الملازم أكثر نحو الجثة. كان من الصعب تماماً التعرّف إليها. وما كان مطلوباً حينها هو أن تتم عملية توصيف لهويتها. لا بد للنساء أن يمررن على الرجل الميت، حتى لا يكون هناك أي سوء فهم فيما بعد، فلا دعاوى، ولا واحدة تُطالب أن تقوم بدفن الجثة، كما في المرة السابقة.

تكوّمن بصمت، وأخذن يجثمن إلى جوار جسد الرجل الملقى ووجهه إلى الصخور، كنّ يرسمن شارات الصليب قبل وبعد، ويصلين في همهمة غير مفهومة، ثم يعدن إلى أماكنهن. وحدها الطفلة ظلّت بعيدة عن هذا الطقس، وحدها بقيت جانباً، وقد جمّدها شيءٌ ربما كان الرعب أو الحزن، أو الغثيان بسبب الرجل الميت.

- «لا أحد، إذن»؟ سأل الملازم.

تقدّمت امرأةٌ إلى الأمام. كانت شاحبة تتنفَّس بصعوبة. طارت يداها بعصبية مثل عصفور حبيس، وأخذتا تلوحان في الهواء. قالت:

- «لعله أخي، يا سيد».

- «أخوك؟»

تساءل الملازم رافعاً جفنيه في ذهول: «هل هذا معقول»؟

- «لقد أخذوه بعيداً قبل ثمانية أشهر، يا سيد. لعله هو».

- «لكنك لست متأكِّدة، صحيح؟ أم إنك تعرّفت إليه؟»

كانت يداها، المَشتبكتان الموجعتان، أشبه بظلال توءمين صُهرا معاً، كانتا تلتحمان وتعترضان إحداهما الأخرى تحت الشمس.

- «كيف يمكنني التأكد، يا سيد؟ أنّى لي أن أرغب في أن يكون هذا أخي»؟

- «جميل. الأمر واضح، إذن. إنه واضح كل الوضوح».

- «هل نأخذه، أيها الملازم»؟

سأل أحد الجنود. وعندئذ فقط، تحدَّثت الطفلة، لم تتحرَّك من البقعة التي كان الملازم قد تركها فيها. قالت:

- «إنه جدّي».

نظر إليها الملازم من الأعلى إلى الأسفل، عراًها، متخيّلاً اضطجاعها في مكان الجثة.

- «جدك؟ هل قلت جدك؟ وما اسمك»؟

- «اسميَ "فيديليا"َ، وهذاَ هو جدي "مَيشيل انجيلوس".»

- «وأنت تعرفت إليه هكذا ببساطة، يا "فيديليا"؟»

- «لستُ أنا التي تقول هذا، يا سيد. إنها جدتي. جدتي "صوفيا".»

- «جدتك»؟

- «إننا نعَرف جدتك تماماً، يا "فيديليا". وأين يمكن أن تكون الآن؟ هل تعرفين»؟

كانت الطفلة، أثناء تبادل هذا الحديث، تتحرَّك ببطء وهدوء نحو الجثة. وحين اقتربت منها جلست على صخرة متعرِّقة، انضغط ساقاها الأسمران إلى بعضهما، ثم وهي تهزّ شعرها، أمسكت بإحدى يدي الرجل الميت المكسورة المتصلِّبة. حينئذٍ، نظرت إلى الملازم بعينيها الشديدتي الصفاء، قائلةً:

- «إنها مع القائد مرةً ثانية، يا سيد. لقد ذهبت تطلب إذناً لتدفن زوجها على النحو الذي يستحقه».

-٣-

عنـد حلـول الظـلام، سـيتجه القائـد، مـع حاجبـه، ونديمـه، ودليلـه، بخطواتـه صـوب كنيسـة المدينـة. في ذلـك الوقـت سـيكون الحـر قـد هـدأ قليلاً، ستخشخش أصوات مرتفعة قادمة من الأزقـة، وسيكون الجيران المذعورين في الخارج لاستنشاق نسمة هواء نقية. ومع ذلـك، فإن القائد سيشعر بثقل أقدامه، وبعناء السنين وقد تجمّع في فخذيه وعلى كتفيه وظهره وهو يصل ليطرق باب منـزل القديسين. وسيفتح القديس نفسه الباب. وسيقول بصوتٍ جادٍ كئيب، ودونما استغراب:

- «مساء الخير، أيها القائد، تفضّل، ادخل».

لابد أن تكون مع ذلك الشخص، لقد حذّره «جيورجياكس» بمجرّد أن التقيا وحدهما. إنه يميل إلى حماية العناصر المناهضة لمصلحة المجتمع، على الرغم من أنه لم يصرّح بذلك أبداً أمام أحد. ثم إنه جدّ محترم لبساطته وفقره.. وسيكون من الجنون أن نُدخِل أنفسنا في مواجهته. إن عليه أن يكون متعاوناً.

لم يقترح «جيورجياكس» على القائد أن يعمِّق صداقته به، ما ينبغي أن يبلـغ الأمـر هـذا الحـد. الرجـال العمليـون لـيس لـديهم سـوى القليـل ليفعلوه مع شخص من جنسه. إلا أن هـذه، في الأغلب، لـن تكون فكـرة سـيئة.. احـضر إلى قداسـه في الكنيسـة بـدلاً مـن الانـضمام إلى قـداس ذلك القسيس الخاص بالفرقة. هذه العلاقة الاجتماعية الملعونة..

بيد أن القائد - منذئذٍ - نادراً ما تبادل مع «الأب جابرئيل» جملتين أو ثلاثاً أثناء مروره به، أو كلما وجدا نفسيهما معاً في بيت من البيوت أو في ركنٍ ما من الشارع.

فيما يتعلّق بالملازم، بدت الزيارة خالية من الحكمة، علامة من علامات الضعف. بعد ظهر ذلك اليوم نفسه، صرّح بهذا قائلاً إنها كذلك تماماً.

أجابه القائد:

- «تعليماتي واضحة. فلنتجنب الحوادث ما أمكن.. إذا استطعنا أن نسوّي هذه المشكلة بما يتماشى مع روح الحل الوطني.. ماذا تشرب»؟

- «ويسكي مع الماء. وكمية كبيرة من الثلج، شكراً لك، أيها القائد».

- «أنا أريد أن أرى إن كان هذا "الأب جابرئيل" مقتنعاً في تهدئة الأمور قليلاً، هذا كل ما هنالك» وأضاف القائد وهو يلتقط أكبر مكعبات الثلج ويسقطها في الكأس: «وهذا ليس معناه قلّة خبرتي في أمرٍ كهذا. ثم إنني – فوق ذلك – تعيّنت للتو، في غمرة هذه الفرقة، وفي مكان حيث...».

- «إننا جميعاً نعرف ما تتمتع به من قدرة، أيها القائد. وأنا لن أسمح لنفسي أبداً بأن يتطرّق إليها أي شك حول حنكتكَ».

حين استدار القائد ليدقّق في الوجه الذي نطق بهذه الكلمات، لم يجد أدنى إشارة تدل على السخرية، ولا أثر لذرّةٍ من الشك. والآن، ها هي اللحظة التي يُستحسن فيها أن يصمت، أن يقبل المديح غير المتوقع. كانت اللحظة التي يجب عليه أن يدع أفعاله تتحدَّث عن نفسها، أن يعلن عن الشدّة التي يتمتع بها، من دون ريب. لكنه أدهش نفسه بالقول:

- «لو كان "جيورجياكس" نفسه، هنا اليوم، لابتسم مكشّراً في وجه بائعٍ ما، ولذهب يتحدَّث مع القرويين ليرى إن كان الحصاد سيتم في أوانه، ولفتّش السجون كي يتأكد. إن كانت قد نُظّفت مرتين في الأسبوع».

تناول الملازم كأسه، في هذه المدينة، النائية، كان ذلك ترفاً حقيقياً. رنَّ الصوت بعذوبة في ذلك الجو الكثيف. الحار، لكنه لم يعلّق بشيء،

ولم يشعر بميل تجاه أو ضد هذه الرؤية الأبوية ذات النزوع الخيّر، التي يبديها «جيورجياكس».

بلع القائد رغبته في السؤال عمّا إذا كانوا لا يزالون يسمون «جيورجياكس» «الأعظم» — أي ما كانوا يسمّونه في الأكاديمية. وهو أي اسم أطلقوه عليه؟ أي نوع من أسماء التدليل تهامس به الجنود والمعانون من كتيبةٍ إلى أخرى، وهل يستطيع معرفة ذلك؟

– «ربما، أيها القائد، قبل اتخاذ أي قرار، أو على أي حال، قبل زيارة القس، ينبغي التأكد من كل التفاصيل أولاً».

هزّ الملازم رأسه صوب الرقيب. وقال: «أعتقد أنه من المستحسن أن نسمع تقرير الرقيب..»».

إلا أن القائد سيذهب لزيارة القس، أياً كان الأمر. لسوف يشعر بالغثيان من رائحة الملابس العتيقة، والغرف المقفلة، والطعام الرخيص المطبوخ، والكتب المعفَّرة بالتراب. وكذلك الوجه للرجل الذي يدعوه للجلوس، ذلك الخدّان الرقيقان الشاحبان بشكل مفرط، وتلك الشفتان الجلديتان، واليدان الواهنتان الناحلتان. انتابته رغبة ملحّة مجنونة في أن يضرب ذلك الوجه، المكروب، إلحاحٌ صارخ، جعل يتصاعد في أحشائه، على وشك أن ينفجر ويحطّم وجهاً مسالماً لئيماً كهذا.؟ أي سرور هو أن تنهي الأمور هكذا، بضربةٍ واحدةٍ، وإلى الأبد!

– «وإلى من أنا مدين بشرف هذه الزيارة؟»

سيقول القس، في حين يُجلس القائد نفسه، على أفضل كرسي في البيت.

وسيردّ القائد:

– «أنا رجل قليل الكلام، أيها "الأب جابرئيل". ولن آخذ الكثير من وقتك».

ستكون الإجابة واضحة. الآخر لديه كل الوقت، الذي قد يحتاج إليه القائد، فليس هناك ما يدعوه للعجلة.

- «"أب جابرئيل"، أنت تعرف، وأنا أعرف، أن "لونقا" ليست المكان الطبيعي لإقامة قاعدة عسكرية بهذا الحجم. نحن نعرف ما مبررات وضعٍ كهذا: قربها من هذه الجبال..»، وفيما بعد.. سيلوّح القائد بيده نحو الخارج، على الرغم من أن العتمة في تلك اللحظة تخيّم على المنظر الشاهق الزلق من سلسلة الجبال القريبة، وسيكون هناك إحساس متزايد بأن كل شيء هنا في الداخل هو أكثر عتمة من الخارج، إذ إن النافذة لم تُنظَّف منذ زمن طويل، والضوء الوحيد هو من تلك الشمعة المحترقة على حاملها الموضوع في النافذة التي تفصل بين الاثنين. «هذه الجبال بالذات، حيث أقيم مركز مكافحة التمرّد الذي ما كان له أن يهدأ، من دون الحسم المباشر والبالغ. إن رغبتي، وأعتقد أن هذه هي رغبتكَ أيضاً، ورغبة السكان عامة، هي أن نرى الوضع وقد تغيّر بسرعة، وبذلك أتمكن والجنود الذين تحت إمرتي من مغادرة المكان بأسرع ما يمكن».

كان هناك الكثير من التفهّم في عينَي القس. فهو لم يكن يأخذ الكلمات فحسب، بل كان يتمثّل ما تحمله من عاطفة خفية. ويستشعر القائد رغبة مفاجئة أخرى هذه المرة لتؤكد له أن ما يقوله هو حق من دون ريب، وكان لعدة أشهر هو الشيء الوحيد، الذي يتمناه معظمهم، هو أن يعودوا إلى البيوت، إنه لم ير أسرته منذ أمدٍ طويلٍ، حتى إنه لم يعد قادراً على تذكّر وجوه أطفاله التي حلّت محلّها صورة فوتوغرافية لم يُرِها أحد أبداً. أن يعود إلى البيت بأسرع ما يمكن، تلك هي الحقيقة الوحيدة السهلة. لكنْ، لماذا يجب على «الأب جابرئيل» أن يؤمن بما يعجز الملازم عن فهمه؟.

ومهما يكن، فإن مشاعر المرء وعواطفه لا يعوَّل عليها في قضايا كهذه. ومن ثم، فمن الأفضل أن يواصل:

- «ذلك هو سبب وجودي هنا، بدلاً من القائد "جيورجياكس". لقد جئتُ إلى هنا لأباشر عملية إعادة الحياة إلى مجراها الطبيعي، وهو ما يترتَّب عليه أمر رحيلنا، الذي نرجو ألا يطول أوانه».

- «والقائد "جيورجياكس"؟»

- «إنه يقوم بمهمةٍ شبيهةٍ بهذه في جزء آخر من البلاد».

- «آه». سيقول القس.

- لسوف يتجاهل القائد هذه. وسيثبِّت عينيه على المسيح الذي يتحرَّك ويهتزُّ في ضوء ألسنة الشموع المتراقصة. وحينئذٍ:

- «أفترض أنك توافقني على أن هذا هو الأفضل لِكل شخص، ليس في المنطقة فحسب، بل في المقاطعة والبلد على حدٍّ سواء».

سيرد القس:

- «حضرة القائد، أي شيء يعيد لنا السلام، يمكن أن يحظى بتأييدي التام».

- «يسرني أنك تشعر هذا الشعور. ربما استطعتَ مساعدتنا».

لم يفعل القس شيئاً سوى أنه شبَّك يديه وهزّ رأسه هزّةً خفيفة. فماذا عساه أن يفعل، بإمكانياته المتواضعة؟

- «المسألة تتعلّق بتلك المرأة، "صوفيا انجيلوس". لستُ أدري إن كنتَ مطّلعاً على.. هاا.. ها حالياً..؟»

- «نشاطات؟»

- «نعم، فلنسمِها هكذا. نشاطاتها الحالية».

إن ذلك يتصل بما تفعله المرأة العجوز.. إنها تخرج لترابط مع كل أسرتها بجوار الجثة الجديدة، الجثة التي ادَّعت أنها جثة زوجها. إنها

ليست من ذلك النوع من النساء اللائي يبقين صامتات، ويحاولن أن يحظين بودّ السلطات، بالتذلّل الكاذب. إنها تميل إلى الفعل...

فزع القائد من مزج شرابه وأشار، وهو يجلس على حافة مكتبه، إلى الرقيب قائلاً:

- «كل التفاصيل؟.. لنرَ ذلك التقرير، يا رقيب».

- «بعد إذنك، أيها الملازم».

رفع الملازم كأسه، وكأنه يرفع كأس البهجة، ثم شرب، وفي الوقت نفسه أمر الرقيب أن يتقدَّم.

- «حين وصلتُ لأنفِّذ أوامرك، أيها القائد، أي أن آخذ الجثة وأقيم لها جنازة مسيحية، وجدتهن هناك. إنها أسرة كبيرة العدد. حوالي أحد عشر شخصاً. إضافة إلى هذا، فإن المرأة قد أحضرت خمساً من عنزاتها إلى تلك البقعة، واثنين من الكلاب».

- «أي ما يمكن تسميته بنزهة عائلية». علّق القائد، غامزاً نحو الملازم، الذي رفع كأسه ثانية. هذه المرة، من دون أن يقرّبه إلى شفتيه:

- «نعم، يا سيدي. تحت بعض الأشجار المجاورة، صنعن مائدة من قطعة قماش. إنها في الواقع بضعة صخور كبيرة، وكان معهن فاكهة مبرَّدة في النهر. كان يظهر كأنهن يُوقِدنَ ناراً، وكان واضحاً أنها من أجل الحساء، أيها القائد».

- «هل ينوين قضاء الليل هناك؟ الليل كله؟ من دون رجال؟»

- «حين شرحت لهنّ مهمتي بطريقة وديّة ومهذّبة، كما هي الأوامر، أشارت عليَّ المرأة إلى أنها لن تسمح لأيٍّ كان، غيرها، بأن يدفن زوجها، وأنهم قد فعلوا ذلك لأخيها ضد رغباتها، لكنَّ رغبتها، الآن سوف تنفَّذ. وقالت: إنها، لا هي ولا أسرتها ستتزحزح عن البقعة حتى تضمن لها السلطات ما تدعوه حقها المشروع».

نقل القائد كأسه من يدٍ إلى أخرى، ثم ارتشف رشفة صغيرة، من دون أن يرفع عينيه عن وجه الرقيب المتورّد.

- «والأسرة، هل هنّ كلّهنّ نساء؟».

- «لا، يا حضرة القائد، حوالي عشر أو إحدى عشرة، وصبيّان. أحدهما في الرابعة عشرة، وربما في الخامسة عشرة، والآخر صغير، عمره سنة فقط. أو أكثر قليلاً، من الصعب أن تقدّر عمره».

- «صبي في الرابعة عشرة، أو الخامسة عشرة».

- ردّد الملازم متكلّماً للمرة الأولى منذ وقت طويل:

- «رجل العائلة، هه؟»

- «لم أعرفه بعد، أيها القائد، لم أعرفه. لكنّ، ربما يكون أكبر حفيد لهذه المرأة اللطيفة، ابن عم، وربما أخ الطفلة التي حدّثتك عنها».

- «فيديليا»، أكمل الرقيب. وابتسم الملازم مردِّداً:

- «فيديليا».

- «وهل من آخر حاضر هناك؟ مَنْ غير هؤلاء انضم إلى المجموعة؟»

- «من دون أن يكونوا جزءاً منها، أيها القائد، قريباً منها ولكنْ ليسوا جزءاً من المجموعة. يشاهد المرء، على بعد مسافة محدَّدة، عدداً من النساء. يخيّل إليّ أنهن يجئن بالتناوب دائماً، هناك واحدة أو أكثر، تغسل الملابس، حسبما أتصوّر. إنه مجرّد انطباع، هذا كل ما في الأمر».

- «ثلاث أو أربع نساء من العائلات الأخرى، يتناوبن. إننا، إذن، منظمون جيداً».

نهض القائد من اتكاءته على المكتب وأفرغ كأسه. وأشار إلى الحاجب، الذي كان يقف طوال الوقت بجوار الباب، يبدو كأنه مشغول البال بشيء آخر، أو كأنه لم يكن هناك على الإطلاق.

- «وأنتَ، ماذا تظنّ في هذا؟»

رد الحاجب في الحال، وبطلاقةٍ مدهشة:

- «إن أذنتَ لي، حضرة القائد، الموقف صار حسَّاساً. إن تلك المرأة مثيرة شغبٍ محترفة. والناس هنا أشبه بالحيوانات حين تصل الأمور إلى هذا الحد. كلُّ ما يفكّرون به هو كيف يزيدون الأمور إثارة. فهم لا يكونون سعداء ما لم يتشاجروا ويتقاتلوا. وهذه المرأة هي الأكثر إثارة للقلاقل من الآخرين. إنَّ هذه الحادثة شبيهة بحالة تلك الجثة الأخرى. فهي لم تكد تراها بعد، حتى أعلنت للرياح الأربع إنه زوجها. وهذا مستحيل، أولاً: لأن "ميشيل انجيلوس" ليس ميتاً، وثانياً: لأنه ما من أحد استطاع أن يتعرّف بشكلٍ دقيق إلى جثة في مثل تلك الحالة، وثالثاً: لأنه في هذه الحالة، كما في المرة السابقة، الأعمار لا تتوافق».

- «أيها القائد!»

لمح القائد الغضب يتّقد في وجه الملازم، فرفع يداً وقال:

- «بسيطة، بسيطة، فلنشرب كأساً أخرى، ولنأخذ الأمور على مهل».

- «أيها القائد»، ردّد الملازم مرة ثانية؛ «أعتقد أنها مؤامرة. أنا متأكّد أنَّ ما نواجهه الآن هو مؤامرة».

كلمات الملازم هذه، بمعزل عن الغضب والإصرار اللذين قيلت بهما، هذه الكلمات نفسها ستكون هي الكلمات التي سيستخدمها القائد فيما بعد، وقت حلول الظلام، في منزل القس.

- «نشاطات»؟ سيقول القائد؛ «أعتقد أنه من الممكن أن تُدعى هكذا. إنَّ ما يحدث – بالنسبة لنا – هو أكثر خطورة، أيها "الأب جابرئيل". إننا نفضِّل أن نسمّي الأشياء بأسمائها. إننا نفضّل أن نقول إننا وجدنا أنفسنا في مواجهة مؤامرة».

وسينتقي القس كلماته بدقة. سيكون من الواضح أنه قد تمكّن من السيطرة عليهم، فبدا كل واحدٍ منهم وكأنه قد لقح.

- «يبدو لي أنه من غير العدل أن نتصوَّر الأمور على هذا النحو».

- «فكيف نتصوّرها، إذن»؟

- «أنا أعتبر أنه من سوء الحظ أن امرأة في ذلك السن والمسؤولية قد وجدت نفسها مضطرّةً لتواجه عملاً كهذا».

- «اضطرّت؟ هل تبرّر فعلتها»؟

- «ليس من مسؤوليتي أن أحكم على عباد الله، يا سيدي. هذا ليس من اختصاصنا. إنني ببساطة أجد أنها – مثلها مثل كثيرٍ من النساء في المنطقة – تعاني حالةً لا إنسانية، وفي حالةٍ كهذه لابدَّ للمرء أن يبحث عن مخرج من هذه الأفعال المريرة، الأفعال التي تبدو وكأنّ ليس هناك من سبيل لاجتيازها».

عند هذه النقطة، سيتظاهر القائد – نفسه – وكأنه جدّ محتار. فيسأل:

- «أتعتقد أنتَ حقاً أنها محض أفعال يائسة، وغير معقولة؟ يا للعجب! أأنتَ حقاً تصدّق ذلك»؟

- «أنا لم أقل: إنها أفعال لا معقولة، أيها القائد. هذه كلماتكَ. إن الوضع الحقيقي لا يحتمل أكثر مما هو عليه الآن، وهذا هو ما أعنيه. "صوفيا انجيلوس" تريد جنازة لواحدٍ تحسبه الثاني من أسرتها. والجيش لا يسمح لها بذلك».

- «تحسبه الثاني من أسرتها؟ وأنتَ، ماذا ترى؟ أمِنَ الممكن أن يكون زوجها»؟

سترتعش شفتا القس. ولبرهةٍ سيشعر القائد أنه قد حاصره. لسوف يلاحظ القلق، والشك. سيرى ذلك من خلال الطريقة التي يحاول بها القس أن ينهض، ثم يرجح أن يبقى أخيراً جالساً في مواجهته.

يتنهّد القس:

- «لأقُلِ الحقيقة، أيها القائد: لا، أنا أعتبر الأمر غير ذلك».

وما دام القائد لن يسمح لابتسامة نصر تظهر على شفتيه، ما دام قد ظلّ هادئاً لا يتحرّك، حتى وهو يستمع إلى المدافع عن النساء، المُجادَلات نفسها التي قد تبادلها هو نفسه مع الرقيب والملازم طوال بعد الظهر، وما دام القائد سيظلّ صامتاً، فإن القس سيشعر بالشجاعة لأن يواصل:

- «إن الأمر أكثر من أن يكون مجرّد معلومات أساسية، لا تبدو بحاجة إلى الإجابة: العمر، البنية، كما أستطيع أن أتذكّر، والأشياء الأخرى. إنه لَيبدو من المستغرب حقاً لجسم بقي في الماء يومين أو ثلاثة، أو ربما أسبوعاً. ليجرفه التيار إلى المدينة نفسها التي وُلد فيها، وعاش فيها، وفوق ذلك، ليكتشف من أولئك الناس، عشيرته. ما دام ذلك قد حدث مرتين، الآن في الواقع، فإنه من العسير جداً أن يُصدّق هذا. إن الله قد عوّدنا على المعجزات، ولعلّه يدبّر الأمور على نحوٍ خفي غامض. لكني قد أطلعتك على رأيي، أيها القائد، وبصورةٍ سريّة، بطبيعة الحال».

- «وأنا ممتنّ لذلك، أيها "الأب جابرئيل".»

لوهلة، ومن دون أن يعرف لماذا ولا من أين جاءه ذلك الإحساس، سيشعر القائد برأسه يسبح في تصوّر أن الذي وراءه ليس هو الحاجب بل الملازم. وسيتماسك مسيطراً على تلك الموجة اللامعقولة من النبض المتسارع الذي انتابه، وسيستدير ليرى من كان هناك بالفعل، يرقبه، ويدوّن كل كلمة يقولها، ويا للهول، إذن فكلا الرجلين كان يسمعه، ولسوف يتفوّه:

- «ومع ذلك، فأنت تشعر أنك تتعامل مع دجّال، محتال وهزأة الرب»؟

- «كلمات عنيفة، أيها القائد». سيقول القس بلطف: «كلمات لم تمعن النظر فيها جيداً. ولك أسبابك الخاصة، التي لا أملك الحق في

التحقّق منها. أنا لن أطلب منك أن تتراجع عنها، أيها القائد. وبدلاً من ذلك، سأسألكَ سؤالاً. فلنسأل أنفسنا من قتل ذلك الرجل، كيف مات، كيف انتهى به المصير إلى النهر؟».

- «مات نتيجة لأسباب عَرَضية»، سيقول القائد، تُغلّف صوته نبرة استخفاف، وهو يتأمّل خدّي القس الأنثويين، المتورّدين، المسرورين تقريباً، وتلك اليدين اللطيفتين وهما تسوّيان الشمعدان من جديد: «هذا هو ما قرّره الطبيب، هذا هو ما سيؤكّده القاضي في عاصمة المنطقة غداً أو بعد غد؟»

- «إنَّ ما فعلتُهُ هو أنني أظهرتُ قدراً معيناً من الثقة بكَ كشخص، أيها القائد، معترفاً لك بالشكوك المتّصلة بهوية الرجل الميت، والتي لن أبوح بها للناس. فلنرَ إن كنتَ ستُظهِر ذلك القدر من الثقة بي».

- «حسناً، لنرَ».

- «هل لديكَ مثقال ذرة من الشك في أن الرجل قد عُومل بوحشية قاسية قبل أن يموت، تماماً كما حدث للجثة الأولى التي قَدِمَت عائمةً في النهر منذ أسبوعين تقريباً؟ ألا يمكن أن تكون هناك حملة منظَّمة لترويع السكّان، لجعلهم يفهمون أن كثيراً من رجالهم هم رهائن وأن أفضل شيءٍ يمكنهم أن يفعلوه هو التعاون مع السلطات؟ أم إن لديك تفسيراً آخر لهذه الأحداث»؟

وسيجيب القائد بسرعةٍ بالغة، ناهضاً من مقعده، عاضّاً على كل كلمة حامية، وسيسمع القائد صوته يقول مُفعَماً بعاطفةٍ شديدة توشك أن تعوقه عن التساؤل:

- «وهل تعتقد أن من مصلحتنا أنَّ جثثاً بلا أسماء، ولا وجوه يجب أن يجرفها النهر كل أسبوعين؟ هل تعتقد أن الحكومة، التي تفعل كل شيء تقدر عليه لتحدّ من وجود القوات الأجنبية التي تحتل الآن جزءاً من منطقتنا، تمارس عملاً من هذا النوع؟ هل تظنّ أنّ ليس لدينا طرقٌ

أخرى للتخلّص من الجثث غير إلقائها بغباء في الأنهار، لتنفجر في وجوهنا فيما بعد مثل طنٍ من الديناميت؟ هل تظنّ أنني أؤيّد فعلة كهذه في الوقت الذي لديّ تعليمات تطلب منّي أن أسعى من أجل الخير، لبدء خطوة جديدة وسلميّة في علاقاتنا مع المتمرّدين؟ أتريد أن تعرف أمراً آخر؟ إنني متعبٌ من هذه الحرب أيضاً. إننا نريدها أن تنتهي. من أجل الجميع».

- «إني أصدّقكَ، أيها القائد، غير أنه من السهل جداً إنهاء كل هذا، في الواقع. وأنت تعرف ذلك. أطلق السجناء السياسيين، المعروف منهم والمجهول، أيضاً، أولئك الذين أخفيتموهم هناك. في اليوم، الذي يعود فيه والد "السيدة أنجيلوس"، وزوجها، وأولادها، وكذا كل أقارب أولئك النساء التعيسات، في ذلك اليوم تستطيع أن تدفن أي جثة تظهر في النهر وكيفما يعجبك. وأنا أراهنك، في ذلك اليوم ألا تظهر جثثٌ أخرى».

هذه المرة، لن يجيب القائد على الفور، لأنه كان قد فكّر، هو نفسه، بالشيء نفسه، عصر ذلك اليوم، عندما أعلن الملازم عن المؤامرة. في تلك اللحظة - نفسها - التي كان الجسد الثاني يرقد فيها على الشاطئ، في تلك المرة الأولى نفسها التي أبصر فيها المرأة العجوز خارج الباب، بلا حراك، تنتظره، وشيءٌ ما مثل ذلك أيضاً حين تلقّى تعليماته الجديدة، الخطة الوطنية للحل، العفو العام، التقارير الشديدة للقائد «جيورجياكس». بيد أنه لن يُطلِع الملازم على أفكاره. وعلى العكس، هزّ رأسه ببساطة مؤكِّداً...

- «أنا أعتقد أيضاً أنها مؤامرة، أيها الملازم. لكنّ ما يريدوننا أن نفعله، بالضبط، هو أن نتصرّف بقسوة شديدة، أي شيء. أفضل لديهم من أن نهاجم أسرة من النساء والأطفال يريدون أن يمتلكوا جثة؟ أيّ هدية أفضل نقدّمها لأعدائنا؟ لقد أعطيتُ بالأمس أمراً جازماً بأن يُنظَّف المكان وتدفن الجثة، من دون إبطاء».

- «أنا لا أشك في ذلك، حضرة القائد».
- «لعلّي غداً سأكون سعيداً بإعطاء ذلك الأمر مرة ثانية».
- «يبدو أن هذا هو الأرجح. أيها القائد».
- «لكنْ اليوم؟ علينا أن نتقدّم بهدوء وحكمة، نجرِّد مشاغبينا من أسلحتهم، ونحبط خططهم والأهم من ذلك كله، نتجنّب تدخل القوّات الألمانية. ألا تعتقد ذلك؟ لأنه في اليوم الذي سنقدِم فيه على قمع النساء والأطفال، فإن ذلك مؤشّر إلى أننا لم نعد قادرين على السيطرة على منطقتنا، صحيح»؟

وضع الملازم كأسه على المكتب، وقال:
- «إنني أوافقكَ على ذلك تماماً، أيها القائد.. غير أنني أعترف لك بأن خشيتي الوحيدة هي أن الوضع في حقيقة الأمر يمكن أن يضطرب من جديد، وحينها، سيتوجب علينا أن نتصرّف بقوّةٍ أكبر لكوننا لم نتدخّل حين كان باستطاعتنا أن نستأصل بذرة الفتنة وهي مازالت في برعمها».
- «لسوف نستأصلنا في البرعم، أيها الملازم، سوف نستأصلها استئصالاً نهائياً».
- «هذا إذا لم تظهر جثة أخرى، حضرة القائد».
- «جثة أخرى»؟

أخرج القائد علبة سجائره، وقدّم للملازم واحدة، تذكّر أنه لم يدخّن من قبل، فأشعل واحدةً لنفسه، وأضاف: «قل لي، أيها الملازم، من تعتقد – بالضبط – أنه يرمي تلك الجثث في النهر بين الحين والآخر»؟
- «ما دمنا لم نُعطَ تفسيراً رسمياً، أيها القائد، فإنني أفضّل ألا أعطي رأياً. الشيء الوحيد الذي أنا واثق منه، يا سيد، هو أن هناك مؤامرة تُحاك. لقد خسروا الحرب المسلَّحة. ولذا، فإنهم الآن يحاولون أن ينتصروا بطريقةٍ أخرى، مستغلّين فرصة أن يدنا لن تطولهم».

- «في الحرب، يا ملازم، أحياناً يسحق طرفٌ خصمه، وأحياناً يعطيه فرصة للاستسلام. هذه هي طبيعة الحرب».

في تلك اللحظة فقط، لاحظ الضابطُ الحاجبَ يتأمّل من الممر، ويتلقّف كل كلمة من خلال شق أملس إلى ركنٍ في ذاكرته المعتمة، ولسوف يتذكّره ثانية تلك الليلة، واقفاً متخفّياً خلفه، أثناء حديثه مع القس، مثل إسفنجة لعينة، إذ سيتحدّث القائد حينها عن الحرب، وسيكون عليه أن يجيب بالتحدّث عن الحرب..

- «أب جابرئيل»، سيقول: «هذه هي الحرب. هناك ضحايا من الطرفين. أنا نفسي خسرتُ أخاً، وابن عم. هناك منتصرون ومهزومون. هذه هي الحرب. والآن، نحن بصدد وضع نهاية لهذه الحرب. لأننا نملك القوة لإحلال السلام. سيكون من الأفضل لو أنكَ، بدلاً من الخطب عن العقاب والثواب، تسأل المخلصين أن يصفحوا وينسوا».

- «الحرب، أيها القائد،..»

وثانية سيشعر القائد بموجة كراهيةٍ عنيفة لعيني القس العميقتين، الشبيهتين بعينَي بقرة، ولذلك اللطف المتكوّن في ذلك الفم الشهواني، ولحركات اليد التي اعتادت تقليب الصفحات، ولليالي العزلة، ولرموش العينين الأكثر أنثوية، والأشد فتنة وحدّة.

- «قوانين الحرب، إذن، تقضي بأن يُعاد الموتى إلى أسرهم.. إذا كان زوجها "ميشيل" قد مات هناك، أفلا يكون أكثر مسيحية أن تبلّغ بذلك، كي تتقبّل الأمر وتواجهه كأرملة حقيقية وليس كـ... نصف أرملة؟ أكثر مسيحية، وأفضل من الناحية السياسية على حدٍّ سواء».

- «يجدر بك أن تترك شؤون السياسة لنا نحن رجال الجيش، واهتم أنت بشؤون الروح».

- «هذا هو ما أهتم به، أيها القائد. ذلك هو بالضبط».

سينهض القائد من مقعده، وفي هذه المرة سيأخذ نبضه الحبيس بالطَرق على خلفية المقعد، وسيصدّه الحارس قبل أن يطرق على الأرض.

وسيقول القائد:

- «طيب. من الواضح أنني لا أملك خياراً سوى التصرّف من دون مساعدة منك».

ومن دونٍ أن يُطلِع القس على سبب مجيئه، أو أن يذكر نوع المساعدة التي كان ينوي أن يطلبها منه.

- «إنني لم أتوانَ يوماً عن التعاون. لقد سألتني رأيي، وهأنذا أعطيكَ إياه. إذا كان باستطاعتي أن أتدخل وأحشد قضايا الروح من أجل الوفاق، ومن أجل ترتيب الحوار بين الأطراف، حتى نتجنّب أي مصادمات أو حوادث نأسف عليها جميعاً فيما بعد..»

- «لكنكَ لا تحبِّذ أن تذهب إلى النهر، وتقنع هذه "الانجيلوس" أن تتخلّى عن موقفها المتمرّد؟ أن تشرح لها بأنه ليس هناك من فرصة – أيّاً كانت محاولاتنا فيما يخصّ هذه المسألة – وأن ما أستطيع أن أقدّمه لها، وهذه كلمة شرف، هو أن أحصل لها خلال فترة معقولة – لِنَقُل أربعة إلى ستة أشهر على معلومات أكثر دقة بشأن اختفاء زوجها»؟

- «إنكَ تعطيها معلومات عن رجل هي توقن أنه هناك بجوارها، ميت. أنا أشك في أنها ستقبل. يمكنني أن أحاول معها، بطبيعة الحال».

- «وإضافة إلى هذا»، سيقول القائد شاعراً اللحظة أن الوقت قد حان لإظهار أوراقه، أن كل شيء يسير وفقاً للخطة: «سوف نطلق الولد "ألكسيس".»

- «"ألكسيس"؟ أنتم تحتجزون "ألكسيس" سجيناً؟»

... نعم كانوا يحتفظون به سجيناً. لأن هذه هي الحرب، هكذا شرح القائد للملازم. أن تضرب وتفاوض. كانت أوامر القائد قاطعة:

- «يا رقيب، لسوف تضاعف الحراسة في ذلك المكان. أنا لا أريد قوة كبيرة هناك، ولا ينبغي أن تبدو الحال مدعاة للقول بأننا حاصرنا مجموعة بريئة، لكنَّ حضور الجيش - خفي لكنْ مؤكَّد - ويجب ألا يُلاحَظ من الآخرين. أوقفوا كل امرأة تأتي أو تذهب إلى تلك البقعة، سجلوا أسماءهن، استجوبوهن عن كل شيء، الأسباب التي دعتهن لزيارة أولئك الناس، الهوية والوظيفة التي يشغلها الرجال في الأسرة، اقترح أن الغسيل يمكن أن يتم أعلى النهر،.. الخ، مفهوم؟»

- «نعم، حضرة القائد، أي شيء آخر، أيها القائد؟»

شعر القائد بعينَي الملازم الثاقبتين اللتين بلا لون تحفران في جسده، غير أنه لم يبادله النظر، ولا سمح لأدنى ارتعاشة أن تشوب صوته.

- «وأحضر لي ذلك الطفل. أنا أريد أن أتحدَّث إليه على انفراد. فلنرَ إن كنّا نقدر على أن نفهم بعضنا البعض رجلاً لرجل..».

وسيكون ردّه على القس مؤكِّداً، قاطعاً ونهائياً مثل ردّه ذاك تماماً.

- «إن رأيي يا "أب جابرئيل" هو أننا أمام مؤامرة، وإن لم تعرف أبعادها بعد. نحن لم نلقِ بتلك الجثث إلى هذا النهر، أو إلى أي نهرٍ آخر. أحدٌ ما يحاول أن يختلق وضعاً نجد أنفسنا فيه مرغمين على اتخاذ إجراءات صارمة - لإحلال النظام. أحدٌ ما يريد أن يعرقل، أن يغتال، أن يغيّر مسار الجهود التي شرعت السلطات العليا تنهجها نحو الحل. إنهم يريدون أن يستغلوا الوضع الأليم لعدد من الأسر، كي يثيروا تصعيداً آخر للعنف. أنا واثق من أنني لست بحاجة إلى تذكيرك أنه بسبب ذلك العنف في المقام الأول، دخلت القوات الأجنبية بأعداد كبيرة إلى البلاد. وتجدّده يمكن أن يزيد من أعدادها بدلاً من أن يؤدي إلى انسحابها الوشيك. أنا أريدك أن تعرف، أيها الأب، أن هذه القضية لا يمكن أن تكون بمعزل عن الحوادث الأخرى التي تهزّ البلاد بأسرها».

- «وما شأن الولد في كل هذا؟.»

- «هذا هو ما نريد أن نحسمه، أيها "الأب". ما شأن الولد بكل هذا، تشعبات القضية الوطنية والدولية لهذه الحركة. إنه الرجل الوحيد في تلك العائلة. أنت تعلم أنّ لا جدوى من التحدّث إلى النساء. سواء أولئك النسوة أم غيرهن. لكنّ بالذات، أولئك النساء، أنت تعرفهن أكثر مما أعرفهن».

- «يبدو من غير المعقول أن تفعلوا أي شيء بـ"ألكسيس". ذلك الولد لا يؤذي سحلية».

- «إلى حد الآن، كنتُ صبوراً فيما فعلت. جدّ صبور. إذا ما انتظرت يوماً آخر، فإن الناس سيفكّرون وسيجري الهمس على الألسن، أننا لم نعد قادرين على التحكّم بشيء. وأن الوقت قد حان لارتداء السراويل والتصرّف كما ينبغي للرجال. وصدّقني، أيها "الأب جابرئيل"، إنني أنا الذي أرتدي السروال هاهنا».

وسيلاحظ القائد كتفَي القس المستديرتين قلقتين، وخدّيه الغارقين في براءتهما، وعينيه العجوزين الجميلتين المهزومتين، وفمه الذي صار يذوي شيئاً فشيئاً طوال الوقت.

- «إذن، ما الذي تريدني بالضبط أن أفعله، أيها القائد؟»

ولأن اللحظة قد حانت كي يشرح القائد ما يتوقعه منه، وما الذي يدور بخاطره..

القس لا يدري، ولم يكن أمامه من سبيل لأن يدري بأن القائد قد تحدّث إلى الحاجب. في الطريق إلى الكنيسة، عند الغسق الذي يندر أن يخفف وطأة الحر، في زوبعة الغبار الكثيفة نفسها التي كانت تتساقط بطيئاً في الهواء، إنهما نادراً ما غادرا مركز القيادة، نادراً ما وجدا نفسيهما وحيدين، هناك، والآن، وفي كل لحظة.

كان صوت الحاجب أجش:

- «إذا سمحتَ لي، أيها القائد.؟»

- «إني مصغٍ». خرج القائد وأخذ يمشي في الشارع.

- «بعد إذنكَ، أيها القائد، شيءٌ ما في ما قلته أوحى لي بفكرة. ربما ساعدت في إنهاء هذا.. الوضع.»

- توقف القائد وقال محاولاً أن يستعيد شيئاً من المزاج الحسن بعد المحادثة مع الملازم.

- «حسناً، إننا على وشك أن نتحدَّث مع رجل من رجال الرب، لذا، فإنني سأجيبك مثلما سيفعل هو. أي فكرةٍ يمكن أن تسهم في قضية السلام يمكن أخذها بالحسبان. استمر، إذن».

- «إنني أفكّر بوالد تلك المرأة العجوز، "كارلوس مايلوناس"، أيها القائد».

- «أبوها»؟

- «اعذرني، حضرة القائد، أعني الرجل الذي قالت: إنه كان أباها، الميت الأول».

- «آه، ذاك».

- «نعم، يا سيدي، لو وافقت على طلب المرأة الأول، أي إرجاع الجثة، والسماح بإقامة جنازة، خاصة بالطبع، وليس كبيرة، لو أنك سمحتَ لها بذلك، بشرط أن تغادر هي فوراً تلك البقعة، حسناً، أعتقد أن ذلك يمكن أن يكون مخرجاً من الـ... الورطة، يا حضرة القائد».

- «نبادلها المدعو أباها بالمدعو زوجها؟»

- ردَّ القائد بنبرة حادة: «هذا جنون. إنهم لم يعدُّونا لشيء من هذا النوع في الأكاديمية. جنازة صغيرة مقتصرة على الخاصة، هذه الليلة بالذات، من دون اطّلاع على أحدٍ خارج نطاق الأسرة المعنية».

- «نعم، أيها القائد».

- «ممكن. ممكن. فلنسأل صديقنا "الأب جابرئيل" كيف يبدو هذا الاحتمال بالنسبة له، فلنظهره له في نهاية المحادثة بعد أن نكون قد لطّفناه قليلاً، وسنرى إن كان سيتعاون معنا حينها».

- «ليكن ما تقوله، يا سيدي..»

واصلوا طريقهم في صمت إلى منزل القس.

طَرَقَ القائد. لكنه، قبل أن يَردَّ أحد، استدار نحو الحاجب وألقى بآخر شك:

- «لحظة، وهذه الجثة الجديدة. ماذا نصنع بها؟ لأنهم ما إن يفرغوا من دفن الأولى حتى يطلبوا أن يضعوا أيديهم على الثانية».

- «ليس بالضرورة، يا سيدي». أجاب الحاجب بعجلة: «هذا يمكن تدبّره أيضاً».

حينئذٍ تأرجح الباب منفتحاً. كان القس نفسه هو الذي فتح الباب، قائلاً:

- «مساء الخير، أيها القائد».

كان صوته كئيباً، حاداً، غير مشوبٍ بأي دهشة؛ «تفضّلا ادخلا».

ودخلا.

الفصل الثاني

-٤-

شيء ما كان يُنذر بالحدوث. كل النساء كنّ يعرفن ذلك، منذ يوم الجنازة عرفنَه، منذ أن رأت "فيديليا" وجه أخيها بين الجنديَين، ومنذ أن عصرت "ماما" يدها. إن أمي قد عصرت يديّ أشد عندما أعادوا "ألكسيس". لكنها لم تسأل أخي عن هذا، لم ترد أن تسأله. منذ تلك اللحظة، منذ ذلك الوقت، كلنا عرفناه. فقط دع الإناء يغلي حتى يفيض، وعندئذ اسكب فيه ماء أكثر، وحاول أن تضغط الغطاء وكل واحد يعرف ماذا يمكن أن يحدث، بل ماذا يجب أن يحدث.

كان هناك كتفَا "ماما"، كومة من الأحجار تتراكم فوق ظهرها، نحن النساء خرجنا لمشاهدة كتفَي "ألكسندرا" مثل أناس يخرجون من منزل ليرَوا سماء ملبدة بالغيوم والريح آخذة في الهبوب، محاولين أن يخمّنوا متى ستنفجر العاصفة. لقد رأيناها تترك، بفخر، وعن عمد، الثواني تتقاضى قبل أن تجيب عن واحد من أبسط أسئلة "الجدة". أنا أعرف "ماما": حيث تزم شفتيها معاً هكذا، وحين تصيران بيضاوين من شدّة الضغط، فإن عليك أن تكون حذراً، لأن القلب في أعماقها على وشك أن يندفع. قافزاً مثل قط حبيس.

"ماما" كانت دوماً على هذه الشاكلة، وحتى حين كان "بابا" موجوداً، وكان غضبها يتصاعد لأيام آخذاً سبيله إلى الذروة، حتى يصير جاهزاً لـ... بَيْد أن «بابا» كان يعرف كيف ينزع الفتيل، «ديمتريو» كان يأخذها من خصرها، ثم يشرع في تدويرها كالمغزل، راقصاً وإياها، مغنّياً بصوت عال، متظاهراً بأنه يقوم بمقابلة إذاعية محاولاً أن يَنْفُذَ إلى سر قلقها الشديد، وكان يدعوها فلفلته اللاهبة، مسحوقه السحري، الديناميتي،

مسلّيته الساحرة، ونجمته التي تقوده، العاصفة الرقيقة. إلى غير ذلك من المسميات المفزعة، وكنا، "ألكسيس" وأنا، نضحك ونضحك إلى أن تنضم إلينا "ماما" أيضاً في الضحك. ما من أحد كان يمكن أن يظلّ حزيناً أو مجنوناً... ثائراً و«ديمتريو» موجود، كان «بابا» مجنوناً، أرعن وجميلاً. لكنْ من الذي يستطيع أن يحول دون ذلك الذي كان على وشك أن يحدث؟ أنا؟ "ألكسيس"؟ أي واحدة منّا نحن النساء؟ وكان أسوأ ما في الأمر أننا جميعنا نعرفه، كل واحد منّا، ما عدا "الجدة". انسلّت خارجة مفضّلة ألا تشارك في الخوف والغضب اللذين يختمران بين قدمَي "ماما"، ولم تدرِ "ماما" ما تصنع بمشاعرها، الطيور الميتة، فكرتُ رغماً عني بطيور ميتة تحاول أن تطير فلا تستطيع أن تنفذ من عيني "ماما"، الأمطار الحارة تتشكّل بين ساقيها، وتصير جاهزة، كانت "الجدة" هي الوحيدة التي لم ترد أن تعترف بتلك الكلمات التي كانت "ألكسندرا" تعض عليها، وتذكرت أنا عندما كنت صغيرة أختلق قصة لأخيف بها "ألكسيس" عن كيف أن "ماما" لها ذئب يتضور جوعاً في داخلها ويتغذى على دمها، ذئب سوف يخرج يوماً ما لأن غذاءه ذاك لن يكون كافياً وهذا الذئب يطيع شخصاً واحداً فقط هو أنا، ولذا فقد كان على "ألكسيس" أن يكون حَذِراً، لكنني – أنا نفسي – حينما شرعت أصدّق هذه الحكاية، "فيدِليا" نفسها صارت مرعوبة. الآن، فقط، عرفنا ما الذي كان يملأ "ألكسندرا" ويبقيها جد ثابتة، وصامتة، عرفنا أنه كان «ديمتريو». لقد كان «بابا» الغائب هو الذي يعوي في داخلها حين أعادوا "ألكسيس"، ولم أستطع أن أنظر في عينيه، وعصرت "ماما" يدي حتى آلمتني، كلتا يداي آلمتني، أعرف أن الوقت لن يطول، أن شيئاً ما على وشك أن ينفجر.

ما إن لمحناها تعود من السوق في ذلك اليوم، حتى عرفنا أن الوقت قد حلّ. كان يكفي أن رأيناها كيف وقفت في طرف باحة الدار مثل غريب يزعجنا من أجل قليل من الماء، أو لتسليمنا رسالة تحمل أخباراً

سيئة. لقد قالت "فيديليا" فيما بعد إنها كانت تريد أن تتدخَّل، وأن تصرف اهتمام "ماما" بأي نوع من السخافات، لكنها قبل أن تتمكّن من فعل شيء، هزّ لها "ألكسيس" رأسه بألا تفعل، ما الذي كان ليجدي، الأفضل ألا تنهض أو تفعل شيئاً، إن كان هو لا يستطيع أن يغيّر نواياها، فما الذي كان بمقدوري أنا أن أفعله؟ ما من أحد في العالَم كان يقدر أن يوقفها الآن. فقط، بركة ظهور «بابا» المفاجئة، هذا هو نوع المعجزة، والشيء الوحيد الذي بقي هو أن أظلّ، مثل كل النساء، أتصرّف كما لو أننا لا نعرف ما الذي ستقوله، كما لو أننا قادرات على محو كلماتها قبل أن تنطق، أو أن نُؤجِّل عدة قرون ذلك الذي كان سيحدث في هذه اللحظة أمام أعيننا، "ألكسندرا" و"الجدة" وجهاً لوجه، "الجدة" و"ماما" متشابكتان أحدهما بالأخرى مثل سفينتين في عاصفة، من دون أن تكون الواحدة منهما قادرة على السيطرة على ما أفلت من يد الأخرى، والسبب هو أن "ألكسندرا" كانت تعتقد، وقد أطلقتها هكذا تماماً، دفعة واحدة، هناك في البيت، وفي باحة الدار، الدار التي تخصّنا جميعاً، بحضور أفراد العائلة جميعاً وأمام "فيديليا" و"ألكسيس" الذي ما كان ينبغي له أن يشهد مشاحنات النساء، قالتها "ألكسندرا" هكذا بالضبط، من دون أن تتحدَّث عنها سراً كما تمنّى بعضنا، بالطريقة المتبعة دائماً بين العمة وبين كنتها في أسرة كأسرتنا، ثم إنها لم تدلِ بأي تنبيه، لقد انطلقت الحكاية هكذا من فمها مثل عنكبوت مخمور أسود موهن يتخبَّط بين أسنانها هذه الأسابيع، قالت: إنها تعتقد أنهم، أننا، وأنا أستطيع أن أرى المناقشة والصمت والاتهامات المضادة مرة أخرى بعد مرة على مدى أيام وأسابيع، وربما أشهر، كل شيء كان على وشك أن يبدأ الآن وفي هذه اللحظة، وما من أحد يستطيع صدّه، كانت تعتقد أن "الجدة".

- «إننا نقتل رجالنا، أيتها "الجدة"، قالت "ألكسندرا": «إنك تقتلينهم». وقد لفظت كلمة "الجدة" كما يلفظ الواحد كلمتَي «المرأة العجوز» كذلك تماماً.

وخطر ببالنا جميعاً، الآن، نعم، هاهو ذا يحدث.

لكنَّ "الجدة" لم تلتفت حتى إلى "ألكسندرا". استمرت تطحن القمح بالمطحنة الحجرية، مديرة حجرة الرحى بسرعة أشبه بسرعة القط، تاركة إياها تنزلق إلى الخلف، محرِّكة يديها بهدوء في هذه العملية. هل الأمر كذلك؟ وكم حصلتِ مقابل الحليب، يا بنت؟ أكثر من الأسبوع الماضي؟ أعطِ النقود إلى "ألَكسيس" لو سمحت.

دعينا نرَ في الحال إن كنّا نملك ما يكفي منها للقيام برحلة أخرى إلى العاصمة، إننا لن نظلّ نبيع الماعز، من يدري، لعل ذلك القاضي النذل يصغي لنا هذه المرة.

غير أن "ماما" لم تكن مستعدة للمهادنة. كنّا جميعاً ندرك أنها لن تقبل هذا، ولا أي حل أو غفران. كانت تريد أن تمحِّص الأمور الآن، وليس فيما بعد، عندما تكون النسوة هنا ويكون "ألكسيس" قد ذهب. رفعت "ألكسندرا" صوتها حيث لا تكون هنالك فرصة أخرى للحلول اللامجدية. رجالنا نحن، أيتها "الجدة"، إن جرماً قد ارتكب، جرماً سيدفع القرية من أجله الكثير، والأسرة أيضاً، والأكثر من ذلك، إنها لم تكن هي وحدها التي تفكِّر هكذا.

أخذت "الجدة" تعاين النقود التي جمعها أخي.

كانت تعدّها ببطء شديد، وكنّا نبصر كل قطعة منها تسقط من راحة إلى أخرى. عندئذ سألت "ألكسيس" إن كان يقدر على أن يكون محنَّكاً بما فيه الكفاية لأن يهتم بالمبلغ، ويضعه في الصندوق الذي على المنضدة.

هل عرف أي صندوق. قصدت؟ تذكرنا ببساطة، وجعلت "ألكسندرا" تتذكَّر ذلك الصندوق الذي بجانب صور رجالنا، ومن بينهم صورة "بابا". صورة «ديمتريو».

لم يكن «ألكسيس» متأكداً. عرفنا ذلك من الطريقة التي كانت ترمش بها جفناه.

كانت تلك مهمة "ألكسندرا". لقد كانت "ماما" هي التي تحتفظ بالحسابات، وهي التي تعرف كيف يحصل على أفضل الأسعار في السوق وكانت مشهورة بسرعتها في عمليات الضرب والطرح، كانت أفضل مني، وكان «الأب جابرئيل» يقول، وهو يحرّك رأسه بحزن وإعجاب، أوه، لو أن أمك استطاعت أن تبقى في المدرسة!

وضعت "الجدة" النقود في يده، وأغلقت أصابعه عليها وأعادت: «اذهب، يا "ألكسيس"، إن "ماما" ليس لديها وقت اليوم أيضاً، كان هناك الكثير لنتحدّث عنه، وفي الحال، كما لو أن "ألكسيس" كان قد اتجه إلى البيت، قالت لـ"ألكسندرا": إن الطماطم لم يرتفع سعرها أبداً، وكان من المستحيل أن تتصوّر كيف يستطيع أولئك البائعون الذين يجيئون من "ألا باكيس" البعيدة، أن يحتفظوا بأسعارهم جد منخفضة، والآن هاهم يقولون: إن هناك فعلاً مؤامرة، لا بأس إن كان المسؤولون يتشوّقون لإيجاد واحدة، حينئذ أبصرناها تعود إلى قمحها بعينيها الخبيرتين، المملوءتين بالحقد، نظرتها المنخلية الفاضحة التي تحتجز ما ليس دقيقاً بما فيه الكفاية.

هل كان ذلك هو ما تعتقد «ألكسندرا أورفانا كسوس»؟ التهديد في صوت "الجدة" كان الأكثر حدّة لأن نبرتها بقيت هي نفسها. وقد لفظتها برقة تكاد تكون هي تلك الطريقة الاعتيادية نفسها التي كانت تلاحظ بها طفل جيران مريض، أو نقص الشاي الجيد في الفترة الأخيرة. هل هذا هو ما فكرت به؟ دعك من «ألكسندرا أورفانا كسوس» وحدها، زوج ابنها الأكبر، «ديمتريو» وماذا عن نساء «لونغا» الأخريات أيضاً، برجال ومن دون رجال، أكنَّ يقلنَ ذلك؟ وربما في هذه الأسرة، هناك أكثر من واحد يظنّ ذلك؟ هناك شخص اتفق مع "ألكسندرا" وراح يتجوّل هامساً في السرّ ما لم تكن لتجرؤ هي على الإقرار به أمام الناس؟ هل كان الأمر كذلك؟

سرحت بنظرتها جيئة وذهاباً علينا جميعاً، ثاقبة كل واحد منّا، وأنا أيضاً، نظرت إلى "فيديليا" بشكٍّ، على الرغم من معرفتها بأنها تستطيع أن تعتمد دائماً على حفيدتها، وأنه كلما عارضها أي إنسان فإنها كانت

دوماً على يقين بأنني سأكون هناك إلى جانبها، إلا أنها قد اتهمتني - حتى أنا - بالتآمر من ورائها.

لقد سمعت عمتي تهمس بما صرّحت به "ماما" بالضبط وبصوت عال، بيد أنّه ما من أحد منّا أجاب. انصرفنا إلى أشغالنا في صمت كعادتنا، كما لو أن ذلك لم يكن يخصنا بشيء. كنّا منتظرات "ألكسندرا" لتتكلّم. فتحت "ماما" الباب، وكانت هي نفسها التي كان عليها أن تجد سبيلاً لإغلاقه.

لكنَّ ما فعلته "ماما" هو أنها تحدثت إلى "ألكسيس". لم يكن عليه أن يدخل النقود، هي ستفعل ذلك فيما بعد. كان ذلك من مسؤوليات أبيه، وكان من الأصول، أن يكون حاضراً، لقد صار رجلاً الآن، أو على الأقل عليه أن يتظاهر بأن يكون كذلك في أوقات كهذه، الله يعلم.

وقف "ألكسيس" على الباب، توقف هناك، عند العتبة، ينتظر، من دون أن يكترث بأحد. شبَّك ذراعيه مثلما كان «بابا» يفعل، واستند إلى الجدار ولم يقل كلمة واحدة. كان ولداً صموتاً، لذا فإن موقفه ذاك كله لم يدهشنا، غير أنه كان أكثر صمتاً من المألوف، إذ لم يكن يفتح فمه منذ أن تركناه يذهب تلك الليلة.

لقد رأيناه يظهر بين الجنديَين. كان الوقت قد جاوز منتصف الليل حين التزموا بوعدهم وأخرجوه من السجن حتى يستطيع المشاركة في الجنازة، ومنذ ذلك الحين لم يتفوّه بكلمة، ولم يتحدّث عن أي شيء.

وضع كتفه أسفل التابوت الذي كنّا قد أعددناه من قبل، وشرع يتقدّم صاعداً التل، من دون أن يلتفت - حتى - إلى الملازم والجنديَين ولم تصدر عنه أيما نأمة[1] في تلك اللحظة ولا فيما بعد، وما من أحد منّا سأل أي سؤال، ولا حتى "ألكسندرا"، ولا حتى "فيديليا". لقد فضّلنا ألا نعرف ما حدث له. لم نرده أن يجيب عن أسئلة ما كنا لنسألنا أبداً.

---

1 - النأمة: الصوت الضعيف الخفي.

عندئذ، رفعتُ بصري برهة تكفي لحمامة أن تهب طائرة، وكان هو ينظر إلي وأنا جالسة وسط النساء الأخريات اللاتي كنّ يغزلن، وكنتُ مسرورة لتلك النظرة التي خصّتني بها عيناه البنيّتان اللتان تشبهان عينَي، فابتسمت كما تبسّمت عندما أعادوه تلك الليلة، حتى يعرف أنني كنتُ هناك قريبة منه، لكنَّ الأخريات لم يخرجنَ عمّا كنَّ فيه من انسجام ولو لثانية واحدة. كان عليّ أن أواصل العمل مثلهنّ، تماماً مثلما كان يجب على التل أن يصعد بجثة الجد العظيم.

انهمكنا في غزلنا، بتخيّل تقريباً «ألكسندرا والجدة» في مكان آخر، في بلدة أجنبية ما، حيث الثلج يتساقط بدلاً من تلك الشمس الحارقة التي تلهب الأرض بحرارتها. سادت لحظة صمت. ما كنتُ أريدها أن تنتهي. لقد رغبتُ لو ننهض ونعدّ شيئاً للغداء، أو نجمع العسل أو الحطب للنار أو نعتني بـ«سيرجي» الصغير، بل لقد تمنّيتُ لو أننا صرنا أطفالاً صغاراً من جديد مع «بابا» العائد من البلدة، وقد وضع كل واحد منّا على أحد كتفيه.

أردتُ أن أغمض عينيَّ، لأرى حين أفتحهما إن كنتُ سأبصر وجه «بابا» يتلصّص علينا من وراء الشجرة مثل واحد من تلك الملائكة الملتحية في الكنيسة، «بابا» يبعث بجناحين هائلين على كتفيه، ضاحكاً منهما الاثنتين، أمه وزوجه، لسوف أضربكما معاً، ليتكما تتعلّمان من محبوبتي الصغيرة "فيديليا" لا تتسببًا في المتاعب، أليس كذلك يا «خوختي؟» دعوتُ الرب أن يصغي لأمنيتي، وقطعت له عهداً ألا أتسبب في أي مشكلة لو أن «بابا» ظهر الآن، خذني أنا وأرجعه، صلّيت ليمنحني أباً حتى يكون لـ"ماما" شخص ما تستند إليه، حتى يكون هناك شخص ما، يكون هناك شخص ما.

عندئذ، تكلّمت "الجدّة":

نقتلهم؟ خطيئة ما؟ ألم تتدبّر الأسرة أمر دفع «كارليوس مايولاناس»؟ أبيها بعد أن رفض ذلك «الجيورجياكس»، وبعد أن فعل

ذلك أيضاً المسؤول الجديد، المدعو «قائد» والمنصوح من ذلك الملازم الشيطان، ما فعله الأول؟ أوَلم يشعرن بالرضا من تنفيذ شريعة الرب، حتى يرقد الرجل بسلام بعد تأدية الشعائر بوساطة قس حقيقي؟ أوَلم يستنقذوه من الأرض الوثنية للجيش، الذي لا يتقرّب للمسيح بأكثر من الخدمة الشفوية، أولئك الجنود الذين كرّمهم زوجك «ديمتريو» على الدوام؟ هي، هي وأسرتها، هي نفذتها بمساعدة كل إنسان هنا، وبمساعدة «هيلدا»، أختها الوحيدة التي بقيت على قيد الحياة، بمساعدة بناتها الثلاث، ومساعدة كنّاتها ومن بينهن "ألكسندرا" وحتى "فيديليا" و"ألكسيس"، لقد استطاعت أن تلوي يد ذلك الضابط وتثني عزيمته هو وبطانته من السجّانين. كان جليّاً أن هذا الأخير هو أضعف شخصية من «جيورجياكس»، وأنه لم يجرؤ أن يستخدم القوة ضد قضية عادلة وامرأة عزلاء. وهل أدركت السبب؟ لأن كل السكّان أيّدوا ما فعلته، النساء الأخريات شعرن بالعار من جبنهن.

أم السبب يرجع إلى أن "ألكسندرا" التي لم يكن يجري في عروقها الدم نفسه، كانت غير قادرة على فهم أهمية ما أنجزته؟

لعلّه ينبغي لها، قبل الوصول إلى مثل هذه التهم ثانية، أن تأخذ في الحسبان عدداً من الحقائق. الرجل الذي دفنّاه جميعاً الإثنين الماضي كان جد «ديمتريو»، أبا هذين المخلوقين. هل فكّرت بذلك؟ ما كان «ديمتريو» ليُولَد لو أن الرجل الذي دفنه لم يستقبل والدَي «ديمتريو»، هي وزوجها، ويوفّر لهما مأوى في هذا المنزل حين لم يكن هناك من عمل، وسقط «ميشيل» مريضاً، ولم يكن له هو نفسه أب أو أم، فاستقبلهما بذراعين مفتوحتين، في وقت لم يكن ثمة أي طعام في الآنية لأولئك الذين كانوا في البيت. وإن كانت لا تؤمن بذلك، فباستطاعتها أن تسأل «هيلدا»، الحاضرة هناك. كان ذلك في الشتاء الذي وُلِد فيه «ديمتريو». وحتى لو أن "ألكسندرا" قد نسيت ذلك بفعل النبيل وكل أنواع

الحنان الأبوي، ينبغي على الأقل أن تتحلّى بالحشمة والتواضع لضبط لسانها، بغضّ النظر عمّا تفكّر فيه. لم تكن تطلب منها أن تحترم أم «ديمتريو»، إنما «ديمتريو» نفسه، الذي هو بالتأكيد من يجب عليها أن تتخذ من أجله الموقف نفسه، وعندئذ فإنهما بحاجة إلى أن تلتصق إحداهما بالأخرى، الأسرة بكاملها، أيان أتى ذلك اليوم.

المبعث هدهدة من مكان ما. إلى ذلك الحين، فاختارت "ماما" أن تبقى هناك، متجمِّدة في طرف ظل شجرة، تسقط أشعة الشمس على كتفها وشعرها الطويل، مستسلِمة لشعاع أبيض مؤذٍ كأنها تُعاقب نفسها.

بالحرارة، دائماً على مَبعَدة، دائماً منفصلة. وعلى حين غرة، كما لو أن شيئاً قد ذاب، أقبلت تجلس إلى جوار "الجِدة".

– "ماما"، قالت "ألكسندرا"، وأفصحت هذه الكلمة عن كل شيء، «عن ذلك هو ما أتحدّث عنه، يا "ماما"، أنا لا أريد أي شيء أن يحدث لـ«ديمتريو»».

تلاشى الغضب من صوتها، وخلال تلك الثانيتين أو الثلاث، ملاك غامض خفي، ذلك البركة الآسنة التي تكوّنت في حلقتها طوال الوقت. كانت كلمات "الجدة" كافية. لم تترك مجالاً للانفعالات العمياء. أو لعل الأمر كان ببساطة هو أنها للمرة الأولى خلال أشهر قد تحدثت عما تخافه، قد وجدت الشجاعة لأن تضع «بابا» هناك، حيث نستطيع جميعاً أن نراه، أن نتحدّث عن مخاوفها، وتفصح عنها، لأنها كانت المخاوف نفسها التي كنا نشعر بها جميعاً. تلك كانت "ماما"، تماماً، كما يستطيع "ألكسيس" وأنا أن نتذكّرها، صامتة ولطيفة ومكروبة قليلاً وهي تواصل الخياطة، ذلك لأنها لم تكن تؤمن بالسعادة الزائدة، فقط تهزُ نفسها وحيدة. كانت «الألكسندرا» في الأيام الخوالي، إما مستحمّة في الضوء المنبعث من طفلين على وشك أن يُولدا، فعدة طعام الفطور

لـ«ديمتريو» والرجال الآخرين عند مطلع الفجر، أو منتظرة رجالنا قبيل الغروب، وبسلة فاكهة متدلّية يؤرجحها الهواء. أحرق غضبها نفسه وحلّ مكانه ذلك الهدوء العجيب للأنهار التي تنساب إلى بحر هائج.

أبصرت "الجدّة" ذلك، توقفت عن طحن القمح، وأمسكت بالحجرة متجاوبة مع ذلك المزاج. إنها أيضاً لم ترد أي شيء أن يحدث لـ«ديمتريو» غير أن هناك بضعة أشياء، بل أشياء عديدة جداً، ليس باستطاعتنا أن نتحكّم بها، أيتها الصبية.

قالت "ألكسندرا":

- «ديمتريو» حي، يا "ماما". أنا أعرف أنه حي. إنني أعرف ذلك ها هنا.

نظرت "الجدة" نحوها، نظرنا كلنا إلى يدها التي على قلبها. أتت "الجدة" بإشارة من يدها، كما لو كانت تحاول أن تمسك بها عنقود عنب يوشك على السقوط، لكنها راجعت نفسها. نظرت إلى يد "ألكسندرا" كما لو أن بعض الغربان كانت قد التقطتها، وطارت بها في الفضاء، رفعت الحجر ثم تركتها تنزلق فوق القمح.

قالت "الجدة":

- «إن ذلك هو ما نرجوه كلنا. الله يعلم».

ردّت «هيلدا» على نحو مباغت:

- «إنهم يطلقون بعض السجناء. «ديمتريو» يمكن أن يكون واحداً منهم».

- «وسيرجي»، قالت «كريستينا» ناظرة إلينا، ثم إلى «يانينا».

تكلّمت "الجدة" بصوت أجش، ساخر. شائعات كهذه راحت تتردّد هذه الأيام على مدى أشهر ولا أحد من الرجال الذين أخذوا قد ظهر أبداً، لا أحد. كل ما تبقى هو أن نتمنى رؤية جنازة لائقة، بقعة من الأرض يرقدون فيها، قطعة أرض مكرّمة، ثم نؤمّل أن البقية أحياء، وقد

يعودون قريباً، أن نظل صبورين حتى يصير "ألكسيس" أكبر، حيث يستطيع أن يسأل كرجل عن تفسير ما. إذا شُوهد ذلك «القائد» في الحانات يتحدّث عن وعوده بأن بعض النساء سيحصلن على مفاجأة عما قريب، مفاجأة كبيرة، مفاجأة ستدخل السرور على بعض النساء، جميل، إن هذا هو شغل «القائد»، وذلك هو شغل الحاجب الخائن. لا داعي لأن يخدع أنفسنا.

أما الآن، فإن علينا أن نستجمع قوانا لغرض آخر.

إن علينا أن نجبرهم على أن يسلِّموا لنا جثة «ميشيل انجيلوس». لقد أثبتت أن ذلك ممكن، لقد أثبتت لكل أولئك النساء الجبانات الهزيلات أن للإخلاص مكافأته. هاهو الصليب مرتفع هناك، وعليه اسم أبيها. الإثبات هناك أعلى التل.

قالت "ألكسندرا":

– «جدة»، أيتها "الجدة". كفى موتاً. كفى حديثاً عن الموت طوال اليوم، أيتها "الجدة"، لا شيء غير القبر والموت. "جدة"، إنهم سيقتلون "ديمتريو". إنهم سيقتلونه إن لم نفعل شيئاً.

ولبرهة طويلة طويلة لم تتفوه أي واحدة بكلمة.

واصلت «فيديليا» غَزْلها بيدين ثابتتين، وأخذتُ أنا أتأملُ يديَّ كما لو كانتا يدي بنت أخرى. كنتُ أفكر في "بابا"، متمنية أن "الجدة" ستسأل "ماما" مرة واحدة فقط، أن أحداً ما سيسألها عما سمعته في السوق، كيف أنها متأكِّدة أن "بابا" لايزال حياً، كيف أنها متأكِّدة أنه سوف يُقتل.

غير أن الشيء الوحيد الذي حدث هو أن "سيرجي" الصغير شرع في البكاء، في الوقت المحدَّد كالعادة، وجائعاً كالعادة، لم ينهض أحد لينظر إليه، ولا حتى "يانينا"، التي كانت تنتظر مع البقية. في الوقت الذي صار الصمت أسوأ مع بكاء الطفل، الصمت الذي ظلّ يسأل الأسئلة عن "بابا" وعن كل الرجال، وعلى حين غرة أذهلني صوتي وقد انطلق طائراً من

داخلي، مثل طير هارب. لقد كان غريباً أنني لم أتمكن من سماع ذلك الخفقان المجنون لقلبي، وأخذ وجيبه يتردّد في صوتي، لقد شعرتُ به وكأنه يحاول أن يقفز خارجاً، من الغريب أن أحداً لم يستطع سماع حضور "بابا" غياب "بابا" طاغياً على كل شيء، ومتذبذباً في صوتي.

- "ماما" قالت "فيديليا" وهي لا تزال تشتغل من دون أن ترفع بصرها إلى "ألكسندرا": "ماما"، ألم يحن الوقت لتخبرينا بما حدث اليوم؟ هل سمعتِ أي شيء في السوق، يا "ماما"؟ أقبلت نحوي، وأخذت يديَّ من النول وأمسكت بهما بين يديها. وعندما أجابت ببطء، وبصعوبة، كل كلمة كانت تؤديها، لم تكن تريد أن تقول ما كان عليها أن تقوله. همست "ماما":

- "هناك شخص آخر يدعى بالجثة، يا "فيديليا". هذا هو ما حدث. إنهم لن يعطونا تلك الجثة أبداً".

- "شخص آخر؟" نهضت "الجدة" فجأة فتناثر القمح، وأبصرنا المدق يتدحرج عند قدميها. لم تبذل أية محاولة لالتقاط أي شيء: "ماذا قلتِ؟ شخص آخر؟"

بدا سقوط المدق وتناثر القمح إشارة معدَّة سلفاً:

كلنا توقفنا عن العمل للمرة الأولى منذ وصلت "ألكسندرا"، منتظرين للإجابة. غير أنها لم تكن هي التي تحدَّثت. لقد كان أخي.

من دون أن يتحرّك من مكانه إلى جوار الباب، وبذراعيه اللتين لا تزالان مشتبكتين، ومن دون أن يعود متكئاً على الجدار، قال أولى الكلمات التي سمعناه يلفظها منذ أن أودعوه السجن.

- "ساراكيس"، هكذا قال "ألكسيس" وكأن ذلك يفسِّر كل شيء: "تلك المرأة "ساراكيس" سوف تدعي بجثة "جدي". قالت: إنها جثة أخيها "ثيودور". "القائد" سيعطيها لها، وهي ستعيد دفنها".

- "تلك العاهرة؟" أدارت "الجدة" جسدها نحو "ألكسيس" من دون أن تحرِّك قدميها اللتين كانتا مغروزتين في المكان نفسه، مثل جذرين

متورِّمتين يرتعشان، في حين مدّت كامل جسدها نحوه، ولوحت بذراعيها في الهواء: "تلك القحبة ستدعي بجثة زوجي؟ هل تجرؤ أن تستخدم "ثيودور"؟ أخوها؟ "ثيودور" الذي كرههم، الذي وصمهم أمام كل الناس بالخونة، الذي سيركلهم لو أنهم عادوا، يركلهم، هي وابنتها القحبة. والحاجب أيضاً. إنهم سيستغلون صديقنا "ثيودور" من أجل ذلك؟ ليأخذوا زوجي مني؟ تلك القحبة؟"

- "نعم". قال "ألكسيس": "تلك هي".

انحنت "ماما" لتلتقط المدق ثم جلست ثانية على المقعد، كأن كتفاها يثقلان، حتى لتنوء بحملهما:

- "والآن، ما الذي تُرانا فاعلات؟" همست محاولة أن تبعد الهستيريا عن صوتها، ومتحدِّثة كأنها تكلّم نفسها، وقد انفكت ذراعاها كأنهما فرعان تدليا إلى الأسفل.

"لسوف يفعلها "القائد". القائد سيعطي زوجي لتلك البَغِي. إنه سيعطيه لها. لو أن "ثيودور" فقط كان هناك. "ثيودور" سيركلها فوراً ويقذفها إلى الشارع، هي وتلك الداعرة "سيسيلا" وذلك الحاجب الحثالة. مثلما كانوا صغاراً مع "ميشيل".

ما من أحد استطاع أن يوقف هذين الاثنين.

"ثيودور" عرف ما كان ينبغي فعله. لو أننا نستطيع أن نسأله، لعرف ما يجب فعله".

- "صديقنا "ثيودور" لن يعود، يا "جدة". أجاب "ألكسيس"، "لقد انقضت سنتان منذ أن أخذوه، وإذا ما كانوا يستغلونه في هذا الأمر، فذلك لأنهم يعرفون أنه لن يرجع أبداً". سألت "الجدة".

- "أبداً"؟ "ثيودور لن يعود أبداً؟ لكنْ ما الذي سنفعله، إذن؟ بحق السماء، ما الذي نستطيع فعله؟"

- شعرت بـ"ماما" تترك يديَّ فجأة، وأردتُ أنا أن أمسك يديها لبرهة أطول، غير أنهما كانتا قد ابتعدتا.

- "أبداً؟" كررت "ألكسندرا" بصوت أجش مخاطِبة "الجدة" أو – ربما – لا أحد، "إنه لن يرجع أبداً؟"

حينئذ، وللمرة الثانية، لفظت "فيديليا" الكلمات التي كنا جميعاً بانتظارها، لقد شاهدنا هيئتنا الفارغة تتقدّم إلى الأمام.

"ألكسيس" ناديت أخي، بهدوء، أشبه بهدوء من يرتب المائدة، وبلا مبالاة تقريباً: "ألكسيس، ماذا سنفعل؟"

وبخطوتين جسورتين، تقدم "ألكسيس" إلى وسط الباحة، بالقرب من أمه وجدّته اللتين كانتا تنظران إليه بعيون كأنها لم تره من قبل.

وما من واحدة منا استطاعت أن تصدق أنه كان يبكي، ذات مرة، كما كان "سيرجي" يبكي الآن، أو إنه كان، بالأمس، يرقد مع "فيديليا" على السرير نفسه، حيث كان الصغير الآن، يدعونا للاهتمام به.

فجأة، وعبر الصرخات الآتية من المنزل تطلب يد العون من أحد البالغين، الأم المستريحة، "يانينا" التي لم تتحرّك لتقوم بواجبها، عبر هذه الصرخات تكلّم "ألكسيس"، ضاغطاً كل كلمة حتى نسمعها.

- "إما إنه يخصنا جميعاً، أو أنه ليس مُلكاً لأحد. كل النساء عليهن أن يطلبنه للدفن، كل الأسرة".

- "وحينئذ؟"

مَن التي سألت ذلك؟ أنا، نحن، "الجدة"، "ألكسندرا"، مَنْ سأل؟

- "وحينئذ"، أجاب "ألكسيس" باهتمام، وبصوت "ديمتريو" الآن، إنها لسان "بابا" نفسه، وعطفه وصوته المفعم بالوعد، "وحينئذ سوف نرى".

الفصل الثالث

-٥-

- "التالي"، قال القاضي، "آمل أن أحظى بغداء طيب، بعد كل هذا العناء".

"لونغا" مشهورة. بنبيذها الغني بالنعناع". ردَّ القائد بابتهاج، "وقد وضعنا عدداً من زجاجات النبيذ الأبيض في الثلج من أجل مساعدتك على نسيان متاعبك".

- "لابد أن يكون حينئذ الغنم ذاك لذيذاً إلى حد بعيد، والغفوة فيما بعد عميقة مريحة، أيها القائد، كي نعوض عن هذا. رحلة خمس عشرة ساعة من "ألباكيس".

- لقد مررتُ بما هو أسوأ من هذا، بطبيعة الحال، - لكنَّ عشراً من أولئك النساء، يا حضرة القائد، عشر، في هذا الصباح، في حين أن واحدة، فقط، تكفي لأن تفقدكَ صوابكَ".

- فلتعزِ نفسكَ وتذكَّر أنه لم يبقَ سوى سبع وعشرين فقط".

وأضاف الملازم:

- "أو الأفضل أن نتذكَّر علينا أن نتعامل معهن كل يوم على مدار السنة، أربع وعشرين ساعة يومياً، الوقت الذي يكون بمقدورك أن تنغمس بمسائل أكثر نفعاً وإمتاعاً". "ثم إنكَ لم تقابل بعد "صوفيا" العجوز".

- "إننا الآن، على الأقل، نعرف لماذا كل أولئك الرجال مفقودون". كان الملازم هو الذي تحدَّث من جديد، "مع وجود كل تلك العفاريت لتتعايش معها"..

قال القاضي:

- "حسناً، حسناً، إنني أتراجع. إنكم أبطال وتستحقون الأوسمة. المرأة التالية، أحضروا التالية".

صاح العسكري في الممر:

- "كاثرين ثيوفونافيس".

وبينما كان الكاتب يراجع الاسم في القائمة، ظهرت المرأة.

قال القاضي:

"صباح الخير، يمكنكِ أن تجلسي".

تدبرت "كاثرين ثيوفونافيس" أمرها، وجلست على حافة الكراسي، ثم ألقت نظرة قلقة على الرجال الأربعة الجالسين خلف مكتب القائد.

- "أيها الكاتب، أخبرنا لو سمحتَ بإيجاز عن طبيعة الطلب".

- "لا لزوم لذلك، يا صاحب السعادة، إنني أعرف سلفاً ما أريد، وكذلك أنتَ، ومثلنا أيضاً القائد والملازم".

- "إنه إجراء قانوني، يا امرأة"، قال القائد، "من الأفضل أن تلزمي الهدوء، وتجيبي، فقط، عندما يُطلَب منك". لم ترد المرأة.

استقام الكاتب وأخذ يقرأ عريضة الالتماس، التي كانت السيدة "كاثرين" تؤكِّد فيها حقها وواجبها فيما يتعلق بدفن زوجها الميت، رئيس البلدية الأسبق "اندري ثيوفونافيس" الذي وجد ميتاً يوم الاثنين، الثامن من يونيو / حزيران، عندما كانت تغسل الملابس مع مجموعة من النساء الأخريات، ميتاً بسبب غير محدَّد، على الرغم من الأسباب العرضية العديدة، وأضاف الكاتب بنبرة ضجرة مَلول: إنها قد قدمت هذه العريضة، بعد أن بلغها أن الجيش الوطني قد تولّى أمر الجثة، ودفنها في مكان غير معروف.

لهذه الأسباب، فإنها ستكون في غاية السرور أن تُمنح ترخيصاً لتنفيذ واجباتها، كزوج وأم لأطفال الميت، في إقامة الجنازة التي تليق به. وقد أرفقت طلبها بالوثائق الرسمية اللازمة. وثيقة التعميد، شهادة

الزواج من الكنيسة، ووثيقة تعميد الأطفال الستة المولودين منها ومن السيد "اندري ثيوفونافيس".

قال القاضي:

- «حسناً جداً. كلنا الآن نعلم ما تريدين. لعلك الآن قادرة على أن تجيبي عن عدد من الأسئلة غير المهمة.

دعينا نفترض أنه لا يزال هناك بعض الشكوك حول هذه القضية بمجملها، ألا توافقين على ذلك".

- "كما تريد، يا سيدي".

- "طيب متى عرفت أن الرجل الذي ظهر في ذلك الإثنين، الثامن من يونيو / حزيران، هو زوجك؟"

- "سيد؟"

قال الملازم شارحاً وهو يعضُّ على كل كلمة:

- "القاضي يسألك، إن كنتِ قد عرفتِ على الفور أنه زوجكِ، في ذلك الصباح الذي وجدتِ فيه الجَثة في النهر".

- نعم، يا سيد، لقد شككتُ بالجثة على الفور".

- "شككتِ بها؟" انتزع القاضي نظَّارته ومسحها بمنديل. "لقد كان شكّاً فقط"؟

- "إن ذلك هو أول ما يخطر على البال، يا سيدي، حين يكون للمرأة زوج بعيد، يا سيدي. بعد إذنك، إن أفكار المرأة تصير أكثر سواداً، وما إن تسمع عن حادث مؤسف أو حظ عاثر، حسناً، حتى تظن أن علاقة بذلك الذي تحب".

- "كان ذلك — إذن — هو السبب في أنكِ اعتقدت على الفور أن ذلك هو رئيس البلدية السابق السيد "آندري ثيوفونافيس" زوجك؟"

- "نعم، يا سيدي، لقد قفز شيء ما في قلبي، فقلتُ لنفسي، ذلك هو، لقد قتلوه. ألا ترى، كنّا جميعاً متأثرات بحادثة «كارلوس

مايلوناس». الذي وجدناه في النهر قبل فترة قصيرة. لذا فقد كنا نذهب دائماً إلى النهر لنغسل ملابسنا في وقت مبكِّر، وكنا جميعاً نعتقد أننا ربما وجدنا قريباً ما. ألا ترى كم عدد من نفتقدهم؟ إن الحياة أكثر صعوبة بالنسبة للأطفال الصغار مثل هذا، يا سيدي".

- "لكنكِ لم تتعرفي إليه مباشرة؟"

- "بلى، يا سيدي، بل على الفور".

أتى الملازم بإشارة من يده وهو ينظر نحو القاضي:

- "هذا كذب، لقد أخبرتني بحضور طبيب الفرقة وأربعة جنود وعدة شهود آخرين، إنه لم يكن لديكِ أدنى فكرة عن هوية الميت. وها أنتِ الآن تخبرينا أنك تعرفت إليه. إخفاء المعلومات عن السلطات، يا ست، جريمة في قانون العقوبات عندنا. هل تعلمين ذلك؟"

- "أنا تعرفت إليه، لم أكن أنوي أن أطلعكَ، أيها الملازم، السيد. من يدري ما كان سيفعل بي لو أني أخبرتكَ؟"

- "وما الذي كان سيُفعل بكِ؟ ما الذي كان سيفعل بكِ؟" زأر القائد، "كان يُعطى لكِ للدفن، يا سيدة "ثيوفونافيس"، هذا ما كان الملازم سيفعله، وعندها كنتِ قد وفرتِ علينا الآن كل هذه المتاعب".

شبَّكت المرأة يديها بهدوء، وقالت:

- "هذا ما تقوله الآن، يا سيدي القائد. أما ساعتها فكانت الأمور مختلفة. لماذا رفض القائد "جيورجياكس" حق "صوفيا أنجيلوس" في أن تدفن أباها، الله يرحمه، والآن سُمِحَ لها أن تدفنه؟"

- "لو سمحتم، أيها السادة، ما ينبغي لنا أن نشغل أنفسنا بهذا.

إننا هنا لنحقِّق في الظروف المتعلقة بدعوى هذه المرأة والأخريات الست والثلاثين، والخاصة برجل يُدعى مؤقتاً "ن.ن". فلنواصل، إذن، كيف عرفتِ، يا ست، أن ذلك هو زوجك؟"

- "لقد عرفته بمجرّد أن أخرجناه من الماء، يا سيدي، ليغفر لي الله. حين كنا نخرجه إلى الشاطئ، ولمسته، نعم، يا سيدي، الواحدة منا تعرف هذه الأمور، بعد تسع وعشرين سنة من الزواج. في مايو / أيار الماضي صارت ثلاثين، ارحمنا يا رب، إن المرأة لا تُخطئ في شيء كهذا".

- "ألم تعتقدي أنك كنت تقترفين إثماً عظيماً. وخطيئة أبدية، بتركك زوجكِ يُؤخذ منكِ ويُدفن في قبر ما، في حين لم تفعلي شيئاً"؟

- بلى يا سيدي، كنتُ أشعر بالذنب، وقد عنَّفت نفسي، يا سيدي، وهذا هو السبب في أنني رفعت هذه الدعوى التي لدى الكاتب لأصحِّح غلطتي، لأنني لم أستطع أن أنام في تلك الليلة، وأنا أعرف أنني إذا لم أدفنه دفناً ملائماً، فسأظلّ نادمة على ذلك مدى العمر، وسيلومني أطفالي كما كانت ستلومني أمه أيضاً لو أنها مازالت على قيد الحياة".

- "وبماذا فكرتِ حين قالت البنت "فيديليا": إن تلك الجثة هي جثة جدها "ميشيل"؟

- "ماذا فكرتُ، أتودُ أن تعرف"؟

- "نعم، بماذا فكرتِ عندما أعادت تلك الفتاة الجثة لأسرتها، بينما كنتِ مُوقنة بأنها جثة زوجكِ؟"

- "اعتقدتُ أن "صوفيا" قد أخطأت. لم تكن قد جاءت لرؤية الجثة، فكيف كان باستطاعتها أن تعرف إن كانت جثة "ميشيل"؟"

- "بالضبط". صاح القائد، "هذا هو ما قلته بالضبط. لقد جاءت مباشرة إلى هنا حالما علمت بأمر الجثة، أليس ذلك صحيحاً، يا رقيب؟"

- "نعم، يا سيدي، هذا هو ما حدث".

- وواصلت "كاثرينا":

- "وأنا أيضاً اعتقدت أنه ما كان لأسرة واحدة الحق في أن تأخذ جثتَي ميتين اثنين، أعني أن ذلك كان خطأً بالغ السوء بالنسبة "لصوفيا" إذ تطالب بجثة زوجها بعد بضعة أسابيع فقط من عثورها على أبيها.

هذا هو ما قلتُه لابنتي بعد ظهيرة ذلك اليوم نفسه، وأن "صوفيا" ربما كانت تحاول أن تقسم أن ذلك الرجل، زوجي، كان يخصها، من أجل أن تحصل على ما أرادته فعلاً.

– "وما ذاك، أيمكنك إطلاعي عليه"؟

– "أن تدفن أباها، يا سيدي. وقد فعلتْ، لقد رغبت أن تفعل ذلك، تماماً، في وقت الذي تحدَّثت فيه مع بناتي ومع زوجات أولادي. هذا ما حدث. ولم ينقص يومان حتى أنجزت ما عزمت عليه. والآن، الرجل مستريح في قبره. وحينها فهمت أنني ما عدتُ قادرة على الانتظار أكثر مما فعلت، وأن عليَّ أن أمتثل لأمر الله، فتقدَّمت بالدعوى."

– "ولم يخطر ببالكِ أبداً أن تتقدَّمي بها قبل ذلك؟"

– "أنا لستُ رجلاً، يا سيدي، لم يكن أمامي من سبيل لمعرفة ما تفعله المرأة في حالات كهذه".

– "وما رأيك، يا سيدتي الطيبة، في أن هناك ستاً وثلاثين امرأة أخرى غيرك قد تقدَّمن بدعاوى تتعلق بأبنائهن، وأزواجهن، وآبائهن، وبأبنائهن، وإخوتهن، وأصهارهن؟"

– "أنا لا أرى أي شيء، يا سيدي".

– "أوَلا تبدو كل المسألة مثيرة للشك إلى حد ما؟"

– "ولماذا تبدو مثيرة للشك؟".

دقَّ القائد قبضته على المكتب:

– "لا تجيبي عن الأسئلة بأسئلة، أيتها الثعلبة العجوز.

إننا نعرف حيلك. أجيبي عندما تُسألين. إلى حد متى تظنين أننا استطعنا أن نتسامح مع قلة الاحترام هذه للمسؤولية؟"

– "أيها القائد إنني امرأة. وأنا أتوقع أن ضابطاً في الجيش الوطني لا يستخدم أساليب العنف واللغة الفظّة مع امرأة. إنني فقط أمارس حقوقي، عندما تزوجتُ أقسمتُ أن أكون مخلصة لزوجي حتى يفرّق

بيننا الموت. لقد قتلوا زوجي الذي كان رئيساً لبلدية هذه القرية، وأنا لا أريد في هذه اللحظة أي شيء أكثر من أن أمنحه جنازة تتناسب مع الحياة التي منحني إياها أنا وأطفالي، وتتناسب أيضاً مع الخدمات الجليلة التي قدّمها للمجتمع".

قال الملازم بحنق مفاجئ:

- زوجك كان وَغْداً، هل علمتِ بذلك؟ لقد كان مجرماً، رجلاً بلا ضمير، خائناً لبلاده".

- "إن زوجي ليس حاضراً، ياسيدي، ليجيب عن هذه الاتهامات. لو أنه كان هنا، حياً، لأجاب كرجل. أنا أعرف أنه ما كان ليرغب في أن أجيب بدلاً منه، لقد كان يطلب مني دائماً أن ألتزم جانب الصمت، وأنا أهذّب نفسي كالمرأة التي هي أنا الآن، امرأته، رجل عرف كيف يقرأ ويكتب، واحتُرم من الجميع، بما في ذلك مضطهدون.. إنني فخورة بأنني تشاركت حياتي مع "أندري ثيوفونافيس"."

- "كفى خُطباً، كفى خُطباً". صاح القائد آمراً، "أجيبي عن السؤال، يا امرأة، ألا تعتقدين أنه أمر غريب أن تقدّم – مصادفة – سبع وثلاثون أسرة، خلال ثلاثة أيام، دعاوى يطلبن فيها دفن الجثة نفسها التي ظهرت، وقبل أسبوع، لم تتقدّم لطلبها سوى واحدة فقط، امرأة واحدة لم يتسنَّ لها حتى، أن ترى الجثة؟ أظن أن هذا، بالنسبة لك، أمر مألوف بكل تأكيد؟".

- "إن المرحلة التي نعيشها غير عادية، يا سيدي. أم إنك تحسبه أمراً مألوفاً أن ليس في بيتي رجل واحد، أن اثنين من أبنائي قد قُتلا، إن زوجي جاء طافياً في النهر بعد أن اعتقل في العاصمة منذ سنتين، حين كان يحاول أن يتعقّب "ثيودور ساراكيس"؟"

- والنساء الأخريات؟ بماذا أجيبهن؟"

- "هذا شغلكَ، ياسيدي، أنا لم أدرس كي أكون قاضياً حتى أعلم ما ينبغي عليكَ أن تجيبهن".

- "سيدة ثيوفونافيس"، أنتِ ترين أني لو وافقتُ على طلب واحدة منكن، فإن الأخريات سيبقين من دون قريب ليدفنّه. هل تدركين مدى الظلم الذي أقترفُهُ؟"

-- "سيدي، إنه ليسعدني جداً اهتمامك بالعدل. هذا وحده يمدّنا بالكثير من الأمل. ما دمتَ أنتَ نفسكَ لديكَ ملف عن زوجي، وعن اختفائه، فأنتَ الآن تستطيع إغلاق القضية".

قال القاضي وقد شحب وجهه:

- "إني أبلغك، يا ست، بأن حكمي قد اعتُمد من المحكمة الاستئنافية. زوجكِ لم يُؤخذ سجيناً بناء على أمر مني. إني أؤكِّد لك ذلك".

قال القاضي بنفاد صبر:

- "سؤال آخر. قبل أن يتمخض تفكيركِ عن وجوب تقديمكِ لهذا الطلب، ألم تأتِ "صوفيا انجيلوس" لرؤيتك؟"

- "صوفيا انجيلوس" لن تأتي لرؤيتي، لا، يا سيد".

- "بعض أفراد عائلتها، إذن"؟

- "نعم، سيدي، كنّتُها "يانينا" جاءت لرؤيتي".

- "وعمَّ تحدثتما؟"

- "عن الرجل الميت، يا سيد".

- "يانينا" جاءت لتقترح عليكِ التقدم برفع الدعوى.

- اعترفي فلدينا إثبات. اعترفي أن "يانينا" جاءت لتعرض هذا الاقتراع، أن كل هذا ليس أكثر من حيلة".

- رمشت بجفنيها بسرعة، ونهضت من مقعدها.

- "يانينا" كانت قلقة، يا سيد، لأنها اعتقدت أن بحماسها قد ارتكبت خطأ، وأن ذلك الرجل لا يمكن أن يكون "ميشيل انجيلوس"، وأن ذلك الخطأ يمكن أن يكون خطراً علينا جميعاً، يا سيد. إنها مريضة بسبب زوجها "سيرجي". هذه كانت كل القضية معها. إنها لم تقترح عليّ شيئاً أبداً. وقد حدث هذا فقط بعد أن أفضيتُ لها أنني، في أعمق أعماقي، واثقة أن الرجل الذي وجدناه في النهر هو زوجي "أندري"، حتى ذلك الحين، أخبرتني بأن الطريقة الوحيدة لمعرفة هذه المسألة هي طريقة القضاء، يا سيدي".

سأل الملازم:

- "ولماذا لم تأت لرؤية القائد؟"

- "لأن القائد كان قد أعلن مسبقاً أن الجثة لا تخصُ أحداً.

لقد كان من المستحيل أن نثنيه عن رأيه. بعد إذنك، أيها الملازم، لكنك تعرف أن رجال الجيش هم على هذه الشاكلة. انظر إلى القائد "جيورجياكس" الذي كنتَ تعمل تحت إمرته، يا سيدي".

واصل الملازم قائلاً:

- "لا يبدو غريباً، في نظرك، أن "يانينا" هذه، نفسها، مع العديد من المدعيات الأخريات، وتلك الأخرى "ألكسندرا" تحدثت مع ثمان، وتلك الأخرى "كرستينا". ابنة "صوفيا" مع عدد من الأخريات، و"هيلدا"، و"روزا"، وغيرهن، وغيرهن، فالأمر لم يتوقف مطلقاً. هل يبدو لك ذلك، فعلاً، أكثر الأمور طبيعية، أنهن قد انطلقت ليقنعن كل الأسر المجاورة بضرورة هذا العمل؟ هل تعتقدين أنهن كنّ يستطعن أن يفعلن شيئاً كهذا من دون التحريض، الذي يبدو أشبه شيء بالعمل الجماعي، من تلك المرأة مثيرة الشغب؟"

- "أنا أخبرك، يا سيدة إنه لم يخطر لي على بال بأننا هنا لمناقشة نشاطات "صوفيا انجيلوس".

لم تكن لدي أدنى فكرة عما يحدث في بيتها. إنها امرأة طيبة، عنيدة قليلاً، وذات إصرار، لكنَّ هذه خصال حميدة في أوقات كهذه، امرأة رائعة هي وقد كانت قدوتي طوال حياتي. ما يهمنا هو أن نسوّي مشكلة زوجي، يا سيد".

- "إذن أنت مقتنعة حقاً أن ذلك الرجل هو زوجك؟

أنت مقتنعة أمام اللّه؟"

- "ليس تماماً يا سيادة القائد، أعده إليَّ حيّاً، أو قلْ لي في أي سجن هو، حيث يمكنني زيارته وإعطاؤه بعض الطعام والملابس. أو أعطني جثته، حتى يمكننا تشريفه كزوج وأب ومواطن. لكنْ لا تطلب منّي أن أتخلّى عن واجبي المقدَّس مرة ثانية، وألا أدفنه وهو هنا أمام عينيَّ، وفي متناول يدي".

- "وإذا ظهر زوجك في تلك العتبة؟" تساءل القائد بنبرة حادة، "إذا صفقتُ بيديَّ هكذا - وصفق تصفيقاً عالياً - وظهر الآن عند عتبة ذلك الباب، ماذا ستقولين لي؟"

للمرة الأولى طوال الحديث، ترددَّت، وانكسر شيء في صوتها، وفي قدراتها على الاحتمال.

- "سأقول شكراً لكَ، أيها القائد، إن أنتَ أعدتَهُ لي حياً".

انفتح الباب، ودخل المأمور:

- "نعم حضرة القائد؟"

- "وأنت يا جناب القاضي، ماذا تقول؟"

- "التالية"، قال القاضي، "آمل أن الغداء يستحق كل هذا العناء".

الفصل الرابع

-٦-

حين أُحضرت الحلوى، كانوا قد أخذوا يتحدَّثون عن شؤونٍ أكثر خصوصية، قالت له:

- "إذن، فأنتَ لن تسمح بتقديم المفاجأة الكبيرة؟"

مسَّ القائد يدها مساً خفيفاً، كما لو كان عن غير عمد، لكنه لم يتمكن من الإمساك بها.

- "إن حبك للاستطلاع مضاعف، أليس كذلك؟ كمهنية وكامرأة".

قالت بسخطٍ لطَّفته باللعب بملعقة الحلوى، بيدها تلك الفاتنة، التي فرّت على التو من يده:

- "إن فضولي هو مهني مئة بالمئة. كل المراسلين يجب أن يُولَدوا هكذا – رجالاً ونساءً، أو مخنَّثين – مستحيلة، مزعجة أدس أنفي مثل كلب الدموم[1] بحثاً عن الحقائق".

صبّ لها القائد، بتهذيب، كأساً أخرى من "الروز" الذي أحضر منه كمية إضافية، من قبو نبيذ الفرقة.

أجابت بطريقة تكاد تكون مُبهَمة:

- "ذلك أدخره كلية لمجال ممارسته.. خارج ساعات العمل".

- "يا للروعة! ها هي واحدة من القادرات على الاحتفاظ بمسافة فاصلة بين العام والخاص".

- "إلى حدٍّ ما، فقط. وفجأة تتداخل المسائل كلها حتى لا يدري المرء بأيها يفكر فعلاً، بيد أن هناك طريقة ناجعة لمعرفة أين يقف، أتعرف ما هي؟"

1 - كلب ضخم يُستخدم لتعقّب المجرمين.

- "ليس لدي أدنى فكرة".

- "في حياتي الخاصة، يا قائد "ي"، أنا التي أقدِّم المفاجآت، وحينئذٍ.."

- "وحينئذٍ..؟"

- وحينئذٍ أتبين أنني ما عدت أقوم بدور المراسلة".

- "وهذا بالتأكيد يثير فضول شخص آخر".

في البداية اعتبر القائد أنه أمرٌ غريب أن ترسل امرأة إلى منطقة كانت تعدُ قبل أقل من ستة أشهر منطقة قتال، الأخطار فيها كثيرة ومتعدِّدة إذ إن طلبات الصحفيين للذهاب إلى مسرح العمليات كانت تُرفض بطريقة غير رسمية، إلا أنه كان من الواضح أن مكتب العلاقات العامة في الجيش كان يعلم ما الذي يفعله. كل شيء كان قد أُعدَّ بدقة حتى أصغر جزء من التفاصيل.

كانت أول الأخبار الموجزة المتعلِّقة بتلك الدعوى الغريبة والتي عرفت بـ"قضية السبع والثلاثين أرملة" قد أفلتت من أعين الرقابة اليَقظة في صورة نبرة مازحة أخذت تظهر في عمود نمَّام، بشكل خفيف، في إحدى صحف العاصمة اليومية. في قريةٍ جبلية لم يعرف اسمها أحد، وليست موجودة حتى على الخارطة، كانت مجموعة غير قليلة من النساء يتنازعن على شيء ليس سوى جثة. وفي غياب الرجال، الجثث تنفع، كان هذا هو تفسير أحد الكتّاب الساخرين. حالة ضرائر جماعية لم يسبق لها مثيل، انسجام وتآلف غير عاديين، أضاف آخر:

على أي حال، أوجز صاحب عمود في صفحةٍ هامشية في صحيفة يومية عادية. أنه شيءٌ لم يُسمع به من قبل في هذا البلد أو في أي بلد آخر. ها نحن قد سجلنا رقماً ما، في حين أننا نفشل دائماً فشلاً ذريعاً في المنافسات الرياضية، أرامل كثر، لجثة واحدة، أكثر من أي مكان آخر. ومع أن الأمر لم يتجاوز بعد أكثر من هذا الحد، والأنباء كانت تتناقص

بمرور الأيام، إلا أن الناس – بحاسة شمّهم الخارقة – قد استنشقوا رائحة أحزاب أخرى، لها صلةٌ بالأمر، وكانت تنسج خيوطه. من يدري متى ستتكشف القضية وتجري في مسارات أخرى جديدة: دينية، قانونية، وحتى سياسية، فاتحةً قضايا أخرى من خلال الطريقة التي تفسَّر بها، مقتحمة أرضاً محرمة، مقطِّرة السم الذي ظلَّت الصحف المتغطرسة، وحتى المتشجعة بالإجراءات الليبرالية الحالية للحكومة الساعية إلى الحل الوطني، السم الذي ظلّت تخفيه – سنين عدة، ولهذا، وفي غياب رقابة صارمة على الأخبار، أو بتوجيه المعلّقين المعتبرين، أن يكونوا أكثر حرصاً فيما يكتبون، أو التأكيد الزائد على ما يقلقهم، فإنه قد اتخذ قرار بإرسال بعض المراسلين الموثوقين من هيئة تحرير "أنباء الحد"، أكبر وأقدم الصحف في البلاد، لكي ينيروا الرأي العام، وبالذات رأي النساء، الخاص بهذه الحادثة.

– "نأمل أنكَ ستجعل الجيش يبدو عظيماً". هكذا قال صوت من العلاقات العامة للقائد مغلَّفاً بنبرة مميزة ضايقته؛ "تأكَّد من تقديم استطلاع جيد".

أجاب مستغرباً من معنى تلك النبرة الموجِّهة:

– "سأبذل قصارى جهدي".

إلا أنه لم يكن هناك من أحد يصغي له عند طرف الخط الآخر.

بعد يومين، حين انزلقت ساقاها وفخذاها خارجة من السيارة التي أحضرتها، فهم فجأة. وهي، من ناحيتها، كانت أكثر صراحة. فعلى الفور، ودونما مقدِّمة، سألت القائد إن كان قد فُوجئ بظهورها، وهل كان يفضِّل لو أنها رجل. جرأة وتهوّر كهذين في امرأة جميلة أديا إلى تليين دفاعات القائد وتخفيف حدّة صوته، فلم يحاول أن يجيب مباشرة. متّع عينيه بالنظر إلى هذه المعجزة البسيطة، في مكان كهذا.

أجاب أخيراً:

- "الجيش، يا آنسة، أنقذ هذه المنطقة. لقد هيّأنا ظروفاً مثلى لضمان سلامتكِ وسلامة أي صحفي آخر، من أي جنس. غير أنه من السهل على كل من يزورنا، وخاصة في مثل هذه الظروف، وفي مكان كهذا، وأناس لم يكونوا قادرين، ولا حتى أملوا، أن يمرّوا بتجربة حرب وما يتمخّض عنها، من السهل أن يطّلع على حقيقة أنه، منذ فترة وجيزة، كانت الجرائم والغارات تحدث يومياً في هذا المكان بالذات، وأن أزواج أولئك النساء أنفسهن اللائي ستقابليهن أنت بنفسك، واللائي هنّ الآن يبكين ويرفعن الدعاوى ويعرضن صوراً إثباتية، أولئك الأزواج أنفسهم هم المسؤولون عن نشاطات الإرهاب والقتل ضد البلد ما اضطر القوات المسلّحة أن تتدخل بكفاءة ورجولةٍ عرفنا بهما وبسببهما خافنا العدو".

- "أي خُطبة بليغة، أيها القائد! وعلى هذا، لاشك في أنك كنتِ تود لو كان القادم رجلاً".

ابتسم في كياسةٍ، قائلاً:

- "الحقيقة هي، نعم، كنتُ أفضّله رجلاً. كنتُ الآن، على أي حال، لابد أن أصارحكِ أن وجهة نظري قد تغيّرت".

- "بهذه السرعة؟ وعلامَ اعتمدت في هذا التغيير؟"

كما لو أن المومس لم تفهم على أي شيء اعتمد، كما لو أن الإناث لم يتعلّمن علم الغزل قبل أن يُولَدن. كما لو أن طريقتها في.. إلا أن القائد فضّل أن يكفّ عن توضيحاته. وسيطر على هذا الموقف سيطرة تامة. كان من الضروري أن يبقي خواطره في الجليد، ألاّ يتخيّل شيئاً، أي شيء على الإطلاق. لأن هذا الصنف من النساء، والسيئات الطباع، هو ذلك الصنف الذي يقرأ بسرعة أفكار الرجل. استعاد نبرته المهنية الملائمة. كان يعتقد، وهذا ما قاله بالفعل، أن امرأة متعلّمة هي في مكانة جيدة

ومتميزة تؤهِّلها لتقدير الأسباب المتعلّقة بهذا الوضع. إنها لم تكن مسألة وجود مؤامرة فقط – فقد كانت هذه موجودة، وهذا بيِّنٌ تماماً – بل فهم خلفية الحالة العقلية والعاطفية لسكان قذف بهم في أماكن مثل هذا المكان. بعاداتهم الوثنية، وجهلهم المزمن، ووجودهم الهامشي الذي لم يمسسه أي مظهر من مظاهر الحضارة المعاصرة. تلك البربرية تشكّل التفسير المعقول لن تسمح أولئك النسوة التعيسات لأنفسهن بأن يوجَّهن من قبل العَدوّة، ويعمدن إلى تلطيخ أنظف ما يملكن؛ الأسلاف، والشرف، بمغامرةٍ جنونية لا معنى لها.

بهدوءٍ، دوّنت كل ذلك في كرّاستها. وسألت وهي تواصل الكتابة:

– "هل لك أسرة، أيها القائد؟ لقد دافعت عنها بحماسٍ شديد؟"

ودونما تردّد، فتح درج مكتبه وقدّم لها صورة زوجه هي والأطفال الثلاثة. قالت وهي تعيد الصورة:

– "ما أجملهم!"

وضعها جانباً، قبل أن يواصل:

– "إضافة إلى هذا، أرجح أنك تعرفين بأنك قد وصلت إلى هنا في لحظة مناسبة، مبشّرة بالخير، كما أعتقد. أنا لا أدري إن كانوا قد شرحوا لك في العلاقات العامة، بمناسبة زيارتك، أننا عازمون على أن نوضِّح للجمهور زيف مزاعم أولئك النسوة".

– "لقد أخبروني بذلك، أيها القائد، لكنهم لم يقدِّموا لي تفاصيل. أنا لا أدري لِمَ كل هذه الضجة؟"

– "إنها عن حقيقة، سيكون بمقدورك أن تستفهمي عنها، وتعلنيها للرأي العام، إنه ليس هناك شيء أكثر من مجرّد مناورة، وخدعة بالغة التضليل".

– "هل باستطاعتك أن تكون أكثر وضوحاً"؟

- "بما أنك لم تُخبري عن الأمر، فإنني أفضّل في الحقيقة أن أجعلها لك مفاجأة. فلنَقُل إنها بالضبط مفاجأة بسيطة لا يتوقعها أحد؛ لا أولئك النساء ولا أنت أيضاً".

- "مفاجأة"؟

- "يمكننا أن نسميها هدية لك، إن أنت لم تفهميها بصورة خاطئة. إنه لأمرٌ طيب دائماً أن تقدَّم مكافأة لأولئك الذين يبذلون جهداً ليس فقط، لفهم صعوبات الوضع الراهن، بل لتوصيل فهمهم ذاك إلى قرائهم".

- "شكراً لك لهذه الكلمات اللطيفة، لكنكَ لو أطلعتني ما تلك المفاجأة، فسأكون حينها ممتنّة بالفعل".

نهض القائد من مقعده، قائلاً:

- "إن أنا أعلنتها، فستنتهي بذلك بهجة المفاجأة، السرور والفرح لاستقبال الخبر لحظة انبثاقه من مصدره. لو تصبرين قليلاً إلى أن نفرغ من الغداء.."

- "لن يكون الغداء مناسباً لي، أيها القائد، إذ لن يكون بمقدوري أن أقوم بمقابلة ملائمة".

- "لدينا وقت".

- "إن عليَّ أن أغادر في الظهيرة. ليس لدينا من الوقت الكثير كما تظن".

- "سوف ننظر في هذا".

-٧-

- "لقد جمعتهن كلهن، حضرة القائد، كما أمرت". قال العريف.

- "وكلهن أُخبرن بأنه ستكون هناك إحدى المراسلات". أضاف الملازم، ملقياً عليها نظرة عديمة الاكتراث.

- "والبقية؟"

- "كل شيء جاهز، يا سيدي".

- "فلندخل، إذن".

كانت المدرسة عبارة عن غرفة كبيرة، واحدة، فقط، غير الكنيسة التي يمكن أن تتسع لعدد كبير من الناس. كان القرويون قد بنوها بأنفسهم، كما شرح الأب "جابرئيل" مشتغلين في أيام الأحد وفي الليل، أيضاً، بعض الأحيان. ولما صار كل شيء جاهزاً، أبدت الحكومة استعدادها لتقديم يد المساعدة في الطلاء وبعض الحاجات الضرورية، من قبل وزارة التربية، اللازمة عند افتتاح المبنى. ومنذ ذلك التاريخ، صارت الصالة تستخدم للاحتفالات. والمناسبات، والرقصات. واللقاءات المحلية والسياسية. وهاهي ذي الآن مكتظة بالنساء، السبع والثلاثين اللاتي تقدّمن بالدعوى، جالسات أو واقفات في صمت، دونما حراك. كنّ ينظرن إلى رجال الجيش نظرات كراهية ولا مبالاة كالعادة، محايدات إلى أقصى حدٍّ، ومع ذلك، ودودات وقريبات من القلب. لم يظهر مطلقاً أن حضور امرأة بين رجال الجيش قَدمت من الجانب الآخر للجبال، لابسة الملابس التي لم يسبق لهن إلا في النادر أن عرفن طرازها ولونها، وموضة حياكتها، والتي لا تشبه في شيء ملابس حِدادهن – قد ترك أثراً ما فيهنّ.

- "هدوء".

صاح الملازم، على الرغم من أنه لم يكن هناك أحد يتحدَّث. نهض القائد من مقعد المدرِّس الذي خلف الطاولة. من هنا، ألقى مسؤول التربية والتعليم خطبة إلى حشد مختلف. كان الأزواج حاضرين، والأطفال والمراهقون المتوتِّرون والعائلات.

- "حسن جداً، إننا لمسرورون وسعداء أن تكون بيننا اليوم سيدة مراسلة من صحيفة "الأخبار". أنا لا أتوقع أنكنَّ قد قرأتنّ هذه الصحيفة، مع أنها واسعة الانتشار حتى إنها لتصل إلى مكان كهذا، لكنْ، لعلكن تدركن أنها أهم صحيفة في بلادنا، وتتمتع بمكانة دولية رفيعة أيضاً. لقد تجشمت السيدة القيام بأعباء هذه الرحلة المضنية والشاقة، لأن هناك اهتماماً كبيراً بقضيتكنَّ. الناس - مثلهم مثل القاضي - قد وجدوا أن المسألة التي بين أيدينا مسألة لا تُصدّق. وفيما بعد، ستكون أمام السيدة فرصة لتوجِّه إليكنّ الأسئلة، وسيكون بمقدوركن، أنتن، الإجابة عنها، بكل حرية. ولهذا، فإنني أطلب منكن البقاء هنا، بعد كلمتي هذه، حتى تتمكَّنَّ من التحدّث إلى وسائل الإعلام".

التقط المصوّر، الذي يقف في مؤخرة الصالة إلى جانب العريف، صورة. لمع ضوء الكاميرا مضيئاً أوجه النساء اللاتي استدرن مذعورات.

ابتسم القائد، وقال:

- "ولكنني جمعتكن هنا لغرضٍ آخر. لقد أكدت، في كل مقابلة من مقابلاتنا، منذ أن تحدَّثتُ أول مرة مع واحدة منكن بعد يومين من استلامي مقاليد الأمور هنا، أكدت أن هذا الهوس الشديد بدفن الرجال، الذين لا صلة لهم مطلقاً بأسركنَّ، هو في الحقيقة ضربٌ من الجنون، بل إنني لا أجد حرجاً في وصفه بأنه هيستيريا جماعية".

لاحظ أن المراسلة كانت تدوّن كل كلمة، فردد بقناعة وحماس: "هيستيريا جماعية".

- "قررت إحدى النساء أن تتعرف إلى جثة كان التيار النهري قد شوّهها تماماً. كانت تتحرّك شوقاً لرؤية عزيزها، فغامرت لتتعرف إليه في مثل هذه الظروف الحرجة المُريكة، إن جيش الشعب يدرك هذه المشاعر، وإنه ليوافق في لحظة شهامة تمنحنا الشرف، على إقامة جنازةٍ للضحية المجهول. إن الجيش يعرف أنه عندما تعيش أسرة في اضطراب وقلق، فإنه يصير مألوفاً أن تبوح بهذه المشاعر أياً كانت، وبأي حال من الأحوال، وذلك لكي يصير باستطاعتها أن تتكيّف مع الحياة بصورةٍ طبيعية. إنهم يفضّلون أن يروا الأب ميتاً ومدفوناً من أن يتخيّلوه يعاني الألم والتعذيب والعقاب أو ضالاً هنا، ضائعاً في الجبال، أو حتى مقضياً عليه من رفاقه المتطرّفين في مكان ناءٍ لا يرجع منه أبداً. إننا رجال الجيش نعرف ما معنى أن تعيش أسرةٌ حياةً كهذه، لأن نساءنا وأطفالنا، أمهاتنا وآباءنا، قد اضطروا أن يعتادوا على التضحية البطولية ونكران الذات إزاء هذا النوع من المشاعر. إنما، هذه هي الحرب، يا سيدات، ولاشك في أنكن جميعاً تدركن أنها لم تكن قواتنا المسلَّحة هي التي بدأت هذا الصراع. لقد كانت هذه المنطقة خيِّرة تعيش في أمان وسلام حتى شرع بعض سكانها يتمرّدون - تُحرّكهم العواطف الشريرة، الفاسدة والأفكار المستوردة - لاغتيال وحدة الأمة واستقرارها اللذين أرستهما قوات النظام حين وجدت نفسها، وجهاً لوجه، أمام ما يتهدَّد أخلاق وطننا وتماسكه".

نزل القائد من المنصة ومشى نحو الحشد. كان حذاؤه يتوقف، بين لحظة وأخرى، قريباً من إحدى النساء موشكاً أن يلمسها. وأخيراً انتهى به المطاف إلى جوار المرأة العجوز الجالسة برباطة جأش على حافة كرسي في قلب الصالة.

- "لكني قلتُ لكنَّ: إن ما تدعينه أمرٌ لا معقول. لقد سألتُكنّ عمَّ سيقوله ذلك الرجل، الرجل نفسه الذي تلححن على دفنه، لو أنه رجع

إلى البيت ليجد نفسه ميتاً، لا بأيدينا، على الرغم من أن المبررات قد قيلت بأننا نحن القتلة، ولكنْ بأيدي حبيباته أنفسهن، اللائي أقمن له الجنازة، ومنحْنَه الصليب والشعائر الدينية، والآن، هاهو حيٌ يرزق، وفي صحة تامة. لقد سألتكن ماذا سيكون موقف الرجل الساخط، وأي شكوكٍ سينتهي إليها في ملاذه، لقد قلتُ لكُنَّ رأيي، وكان ذلك أيضاً هو رأي جيش الشعب، إننا هنا نواجه مؤامرة، وإننا نُستغل من أعداء البلد لبذر السخط والنقمة، بطلب المستحيل، وإثارة الزوابع والأراجيف، ألم أقل لكُنَّ ذلك؟ ألم أتحدَّث إليكن كصديق، وبتعاطف حقيقي، كما ينبغي أن يكون التعاطف بين المواطنين الأعزاء الذين يَهَبُ كل واحد منهم نفسه للقضية الوطنية العامة وهي إعادة البناء؟"

ظلّت النساء محتفظات بصمتهن.

- "حسن، سيداتي المحترمات. لقد آن الأوان لأبرهن لكُنَّ على صحة كلماتي. بعضكن اعتقدن – وحتى قلن – أن ما يريده هذا القائد منّا هو أن نتخلّى عن اهتمامنا بهذا الأمر حتى يمكنه أن يكسب بعض الوقت. هذا هو ما قلتنَّه واعتقدتنَّه، ولسوف أثبت لكُنَّ أن المسألة ليست هكذا. السلطات العليا صارت مهتمة بكل واحدةٍ منكن، بكل أمٍ في هذه الأرض المعطاء التي يشرّفنا أننا نعيش عليها جميعاً. وذلك لأنه، بالنسبة لجيش الشعب، ليس هناك ما هو أكثر قداسة من المرأة ولا ما هو أعظم من الأمومة. ومن أجل الدفاع عن تلك المرأة وعن قيم البيت، الذي نسعى لحمايته وصيانته فوق كل ما عداه، من أجل ذلك عملنا دائماً وأبداً. تلك المرأة هي الحبيبة، الزوج، وأم الوطن. لسوف تعرفن عن قريب أنني لم أكن أكذب عليكن، وأننا كنّا نحتفظ دائماً بمشكلاتكن في قلوبنا بمحبة وثبات. إن السلطات العليا، مثل أبٍ حنون، تعرف كيف تُعاقب وكيف تَصفح. إن الأمن وسلامة الأسرة، اللذين نسعى حثيثاً من أجل

ترسيخهما، ليسا مجرّد خطب ولغوٍ زائد على الورق. ولسوف نثبت لكُنّ ذلك في بضع دقائق الآن".

عاد القائد إلى المنصة متراجعاً بخطواته إلى الوراء، وبهذه الطريقة كانت عيناه تنزلقان من وجه جامد إلى آخر. من دون أن يتخلّى ولو لبرهة واحدة عن زمام سيطرته على المشهد، كما لو أنه كان يمنعهن عن أن يقلن شيئاً. ولما استولى على قلوبهنّ كلياً، أخذ شيء ما شبيه بالتكشيرة يرسم ظلّه على شفتيه. اتكأ قليلاً على الطاولة، وجلس نصف جلسة على حافتها، ثم انحنى، نحو المراسلة التي كانت تكتب، لاوياً عنقه بطريقة حافظ بها على أن يبقي رأسه الحَذِر يتطلّع في أنحاء الصالة، وقال خافضاً صوته: "الوعود هي الوعود. والآن، يا "إيرين" حان وقت المفاجأة" وعلى حين غرة، نبَّه بصوته المخاتل الآمر: "رقيب!"

- "نعم، أيها القائد!"
- "تقدَّم، يا رقيب".

لم تلتفت أيٌ من النساء، ولو قليلاً، ليشاهدن كيف فتح الرقيب في الخلف، أحد الأبواب وخرج منه. بدا الأمر وكأن القائد لم يصدر أمره بشأنه. ومن الخارج، سمعوا صوت الرقيب وكذلك صدًى غريباً هو صدى عربة نقل قريبة تتأهب للانطلاق أو سيارة تهبط التل. ومن دون أن يرفع عينيه عنهن، انحنى القائد ثانية ببطء نحو المراسلة، حتى كادت شفتاه تحطان على شعرها، وتحرصان على ألاّ تلمساه.

- "لا تقولي إنني لم أنبهك، لن تتمكني اليوم من المغادرة".
- "هل أستطيع أن أسألكَ لماذا لا؟"
- "لأن عليك الآن أن تقابلي شخصاً ما، شخصاً مهماً إلى حدٍ ما، في هذه الظروف".
- "رجل؟"
- "دائماً محبة للاستطلاع".

- "رجل؟"
- "إنه من جنس الذكور، ولكن سواء أكان رجلاً أم لا .."
- "وتلك هي المفاجأة الكبيرة؟".
- "تلك هي المفاجأة الصغيرة. لا تتوقّعي أكثر من هذا".

مرّت عربة جيش أمام النوافذ. أدارت النسوة رؤوسهن في اتساق مع ما في الخارج، وبالتدريج، كما لو كنّ غير مهتمات كثيراً، كما لو كنّ يستطعن القول من خلال تجربتهن: إنهن لن يقدرن على مشاهدة أكثر من صورةٍ ظليّة للسائق محاذية الأضواء الناقمة. تسربت سحابة من الغبار، إلى الصالة وحجبت عن الأعين رؤية ما كان يحدث. عندئذٍ، اختفت العربة، وقد دارت من وراء الركن، حيث سمع الجميع صوت احتكاك كابحها الشديد. استدارت أوجهٌ بحركةٍ بطيئة، تشبه حركةً في رقص الباليه، صوب القائد.

- "وهنّ؟"

سألت المراسلة هامسةً تقريباً في أذن القائد، كما لو كانت تريده أن يشعر بأنفاسها.

- "ماذا عنهن؟"
- "لقد جئت كي أتحدّث إليهن. فمتى أستطيع ذلك؟"
- "فيما بعد. فيما بعد. المقابلة الأخرى أولاً، المفاجأة".

رفعت صوتها قليلاً بنفاد صبر، بَيْد أنه لم يسمعها أحد غيره:

- "لا أستطيع. إن لديَّ عملاً في المدينة لأقوم به مباشرة صباح الغد".

تحكّم القائد في كلماته، واحتفظ بها هادئة، صموتة، ودودة، تكاد ألاّ تفهم.

- "أحياناً"، قال وهو يرشق بنظراته المرأة العنيدة "صوفيا" الجالسة هناك؛ "لا يستطيع المرء تنفيذ كل خططه. وأحياناً أخرى، نعم. وفي

أحيانٍ أخرى تنقلب الأمور بصورة لم يحلم بها قط. لكنْ، لا تقلقي، يا "إيرين" لسوف نستضيفك مثل أميرة".

وعندئذٍ، انفتح الباب ودخل الرقيب.

- "جاهز، يا سيدي. تحت أمرك".

وقبل أن يتمكن القائد من الرد عليه، تكلّمت المراسلة. لقد أحسَّ ببرودة كلماتها، ولمس الغضب المتصاعد في حلقها. كما كان بمقدوره أن يسمع تنفسها المتوتر الحاد.

- "لابد أن أسافر اليوم، أيها القائد. وما من أحدٍ يستطيع أن يثني عزمي. آمل أنك تفهم ذلك".

أخذ القائد يجول بنظراته على وجوه النساء ماسحاً ببساطة كل وجه، ومنتهياً ثانية بالتطلّع في وجه المرأة العجوز "صوفيا انجيلوس" متريّثاً وهو يحدِّق في ملابسها الرثَّة السوداء. وبقيت هي مثبِّتة نظراتها في بقعةٍ ما فارغة لا وجود لها على الجدار.

وفجأة، انفجر القائد قائلاً:

- "هكذا، إذن، تمضي الأمور، يا مدام "صوفيا". لا يستطيع الإنسان دائماً أن ينجز كل خططه. هذه هي الحياة".

لم توافق المرأة العجوز على ما قاله ولم تعقِّب بشيء. مدَّ القائد يده والتقط القلم الرصاص الذي كانت المراسلة قد وضعته على الطاولة. راح القائد يستخدمه ليشير به للرقيب.

- "حضرة القائد!"

- "أدخل السجين".

- ولمدة ثانيتين ساد الصالة صمت تام، كما لو أن كل واحد كان ينتظر آثار كلمات القائد حتى تزول. عندئذٍ، وثبت النساء على أقدامهنَّ واستدرن نحو الباب.

- شرعن في الهمهمة والهمس. صاح الملازم:

- "هدوء! لا يتحرَّكنَّ أحدٌ هنا من دون رخصة".

- ظلّ القائد مثبتاً عينيه على العجوز. كانت هي الوحيدة التي لم تتحرَّك وبعناية شديدة وكبرياء عالية، نهضت الآن وأدارت له ظهرها لتتطلّع مع بقية النساء إلى باب الصالة، حيث نودي الرجل "السجين" ليدخل.

- أخذ المصور يُعمِل آلته بإفراط. سحب القائد كرسيه إلى الخلف وأخذ يحدِّق في المراسلة.

- "لا". قال القائد مادّاً يده نحوها ليناولها قلم الرصاص، راسماً ابتسامة خفيفة: "غداً، ستسافرين غداً".

الفصل الخامس

-٨-

لم تُردْ "الجدة" لأحد أن يذهب وينتظر "سيرجي" لا أحد آخر، ولا حتى أخته التوءم "كريستينا" . فقط "يانينا" والطفل، الذي لابد أن يُزيّن لمقابلة "بابا"ه، فهذه الأمور تحدث مرةً واحدة في العمر. نحن لم نعترض. إنه لمن الصواب أن كليهما ؛ أو ثلاثتهم، يجب أن يكونوا وحدهم قبل أن يرى بقية أفراد العائلة مجتمعين.

ذهبت "الجدة" مباشرة حين رجعت إلى "يانينا" من دون أن ترد على تحياتنا وأسئلتنا . "اخلعي أردية الأرملة هذه، أيتها الصغيرة، وألبسي الطفل ملابس أجمل" .

كانت "يانينا" إلى جواري. وقد استطعتُ أن أحسَّ بالرعشة تسري إلى جسدين ارتجافة بدأت من فخذيها وصعدت حتى عينيها ، بدتا مشرقتين، وقد أضاء جسدها كله، فرأيناها تنهض، ورأيناها تقترب من "الجدة" وتمسك بيدها :

- « "سيرجي"؟ هل هو "سيرجي"، يا ماما؟»

ابتسمت "الجدة" وقالت نعم، نعم بالفعل، يا فتاتي.

زوجها كان حياً يرزق، وفي صحةٍ جيدة. لقد ودّت أن تحضره لها على الفور، بمجرّد أن دخل عبر باب المدرسة، لكنَّ القائد قال: إنه لا يزال هو الذي يعطي الأوامر ولابد للمراسلة أن تُجري معه مقابلةً أولاً، وبعدئذٍ فقط سيُطلق سراحه. حرٌ بشرط، أضاف الملازم، أن يراقب كل امرأة، وبخاصة هي.

- "كريستينا!" قالت "يانينا" : "إنه "سيرجي" . "سيرجي" آت، أنتِ قلتِ لي ذلك، أنتِ أخبرتني أنه حي، أنتِ أخبرتني بذلك. هنيئاً لكِ" .

وقد أشار القائد على "الجدة" أيضاً بأن المراسلة نفسها ربما ودَّت أن تسألها عدة أسئلة. لذا، فهل تتكرّم هي وبقية النساء بأن يكنَّ لطيفات ويبقين حيث هنَّ حتى يرجع السجين. لكنها أجابت بأن أسرتها لم يسبق لها أن ناقشت مشكلاتها أمام الناس ولم يسبق لها أن عقدت مقابلات، وخصوصاً مع الأغراب، وأنها، فيما يخصها، ذاهبة لكي تُطلِعَ كنّتها وحفيدها، بحقيقة أن الجيش لا يمتلك اللياقة الكافية لإطلاعهنَّ عن أن ابنها كان في الطريق، وفضَّل على ذلك أن يضع عقبة كبيرة، بدلاً من أن يمنحهم ليلة سعيدة وهادئة. عندئذ اقتربت "الجدة" من "سيرجي". كنا نتخيّل أن اقترابها منه خطوةً خطوة هو لمعانقته أو تقبيله، لتلاطفه أو على الأقل، لتلامسه. لتتأكَّد أنه هو حقاً، فنبح القائد آمراً، وأخذوه بعيداً. لذا، ينبغي لـ"يانينا" أن تسرع. من المتوقع أن يطلقوه في أي لحظة، فالمقابلة كانت تجري في مكتب القائد.

هبَّت "يانينا" مُسرعة إلى المنزل، وسمعناها تتحدّث بصوتٍ راعش إلى الطفل النائم، مُوقظةً إياه برقة. تبعتها إلى الباب ورأيتها بجوار المهد، تغني له بصوتها العذب ذاك، شيئاً مثل: انهض يا جويزتي، يا لويزتي، انهض يا ثمرتي الناضجة، أبوك حي، أبوك قادم، اصغِ إلى أشجار الجوز، "بابا"ك آت، "بابا"ك حي. ثم لفته بين ذراعيها، فرأتني، وناولتني إياه كي يُغسل ويُلبّس.

بقيت "ماما" و"الجدة" في الخارج. سمعتهما وأنا أنظّف الطفل، الذي شرع يبكي بعينين مفتوحتين على اتساعهما، مدهوشاً، بينما هو لا يزال ناعساً.

سألت "ماما":

– "إذن، فأنت لم تتحدَّثي إليه، أيتها "الجدة"؟ ولا أحد منكما استطاع أن يقول شيئاً؟"

لم أُرد أن أنشغل بهذا. لم نرد أن نهتم بأي شيء إذ كان يجب أن يجلب الماء لـ"يانينا"، وكان علينا أن نساعدها في إخراج ثوبها الأخضر، الذي لم تلبسه أبداً، بزركشاته البرتقالية البرّاقة، الثوب الذي أعطاها "سيرجي" عندما عرف أنها تتوقّع طفلاً، بعد سنوات طويلة من الشوق والتمنّي لطفل واحد من دون أن يواتيها الحظ، قائلاً لها: إنه، عند حملها الطفل، اشتراه، ولذا فإنها ستتذكر كيف صار شكل جسمها بعد الولادة، وحينها لن ينسى أيٌ منهما ذلك حين تصير أكبر. وبعد أشهر قليلة أقبلوا وأخذوا "سيرجي" و"ديمتريو" بعيداً، ولم ترد "فيديليا" أن تفكر بما كانت أمها تسأل عنه، وكذلك أخي عندما يصل إلى هناك، ولم نرد أن ندع الآن شيئاً يشغل عقولنا ما دام علينا أن نقضي على تلك القطعة الصغيرة من الصابون المعطّر الذي احتفظ بها للمناسبات الخاصة، و"يانينا" التي نظرت إلى الثوب الأخضر في مكان ما، وهي بين الانسحار وعدم التصديق، كأن ذلك لم يكن حقيقياً، والرداء الأسود الذي ترتديه كان قد تحوّل سلفاً إلى دوامة من الرماد. ما كان ينبغي أن يُسأل عنه شيءٌ آخر، كانت "الجدة" قد أهملته، لكن ذلك كان مستحيلاً. لقد تخيّلنا القائد والملازم والرقيب، وذلك المصوِّر الغبي الذي كان يعميهن بأضواء آلته، ثم، فوق أولئك جميعاً، ذلك المأمور الذي سيذهب ليخبر "ساراكيس" وتلك العاهرة "سسيليا" بكل شيء وتلك المرأة الغريبة التي على المنصة، والتي ربما كانت زوج القائد، و"الجدة" لم تتمكّن من أن تسألها، ولا "ألكسندرا" استطاعت أن تسألها. إنهن لم يستطعن أن يقلن شيئاً، وهي قالت الكثير. إنها لم تسأله إن كان في حالةٍ جيدة ما دام قد ظهر لها هناك بشحمه ولحمه، سالماً بما فيه الكفاية، على الرغم من نحافته الشديدة وشحوبه المُفزِع. كان ينظر إلى الأرض، من دون أن يرفع بصره، كأنه كان سجيناً، ولا يزال، ولم تسأله حتى تلك الأسئلة التي تخطر على بال الإنسان في مثل هذه الأحوال، مثل: كيف كانت الرحلة،

أو هل افتقدت الأسرة، الأمور التي ستسأله "يانينا" من دون ريب وهما عائدان من المدينة في طريق البيت. إنك، إذن، لم تتحدَّثي إليه يا "جدة"، سألت "ألكسندرا" بطريقة من يقول، لو كُنت أنا لسألتُهُ، كنتُ سأسأله حتى لو كانت كل نساء المدينة حاضرات، كل نساء المعمورة. أي عيب أن نسأل عن كل ذلك الذي بأطراف ألسنتنا؟

إننا لا نبوح بأسرار أسرتنا إلى الناس. إنها لم ترد أن تمنح القائد شيئاً من الرضا، على الرغم من أنّ النصر هو، في الواقع، من نصيبنا. أي نفع في أن نعتقد أننا هُزمنا، وأن ذلك القائد قد تمكّن من ثنينا؟ إنهم هم الذين أُجبروا على فعل ذلك، فلنخرج على الأقل، واحداً من رجالنا فلعلهم الآن عازمون أيضاً على أن... لكنَّ ذلك كان هو السؤال بعينه الذي لم تسأله "الجدة"، لعل "يانينا" ستطرحه عليه قبلنا. لعلها تفكر فيه منذ الآن في حين أنني لا أدري ماذا أصنع بركبَتي هاتين، وبعقبَيَّ وبحمامات البهجة والفزع هذه الحبيسة في صدورها، السؤال الذي على "يانينا" أن تفصح عنه في مكان ما من الطريق باسمنا جميعاً، بعد الحديث عن الفستان، وبعد إطلاعه على تلك الطُرَف السارة عن الصغير "سيرجي"، السؤال الذي طرحته على كل رجل آخر من الأسرة عاد بمفرده، موثَّق اليدين، منكَّس الرأس، أشد شحوباً وكسوفاً من القمر، ذلك السؤال، السؤال ذاته الذي لم تسأله "الجدة". السؤال الذي لم تستطع "ألكسندرا" أن تسأله، السؤال الذي احتفظ به كلٌ منّا في لسانه كما لو كان قطعة علك نفد عصيرها ولم نرد أن نبصقها، ذلك السؤال، فقط ذلك.

وبحركة حاسمة مرتعشة، حلت "يانينا" السواد تاركة إياه يسقط عند قدميها مثل كلب متكوّر مُنتن، وظهر جسدها في الظلال، ومن حيث كنتُ، استطعتُ أن أرى عينَي "ماما" وهي تنظر إلى "يانينا" عارية، "ماما"، و"الجدة" وأنا أبصرناها تنسلّ خارجةً من الحِداد، كاشفة عن

بياض جسدها القوي العملاق الذي ظلّ طوال كل تلك الأشهر حبيساً تحت الملابس نفسها، كل واحدة منّا ارتدت ثوب حدادها ولم تغيّره ما عدا "فيديليا"، كان ثدياها نافرين، ولم ندرِ أيّنا تذكَّرت الأعشاب، لابد أنها كانت "روزا" التي لم يَحدُث أن كان لها حبيب أبداً، لابد أنها كانت "روز" التي تذكَّرت الأعشاب، الأعشاب التي دقّتْها كي تصنع منها بخوراً لا يضاهى كما علّمتها أمها، عندما تكبرين يا "فيديليا"، عندما تكبرين، وعندما تصيرين على وشك الزواج، حين تكونين قد أحببت رجلاً قوياً شجاعاً لا يعرف الاستسلام، سوف أعطيك هذا، وسأضع يدكِ - حتى - على سر ذلك الخليط، ثم دعتني أشمّه فحملتني رائحته العطرة إلى ما وراء الحقول، أزهار الكرز، حيث كانت تخرج كل مساء باحثة عنها، تخرج مع "كريستينا" التي كانت مشغولة البال بـ"سيرجي" وأيضاً بحبيبها "اريستوس"، والتي هي الآن - ربما - تتذكَّر "اريستوس" أيضاً، وهي تحضر الماء لـ"يانينا"، ولابد أنها قد شعرت بثقل نظراتنا الشبيه برغوة الصابون، أو بماء يجري على جسدها الذي كان يلمع في الغبش، لابد أنها قد شعرت ببشرة جسدها الأملس البادي للعيان، واقفاً هناك غير بعيد وغير ناظر إلينا، تاركاً لعيننا حرية التطلّع إلى بشرتها، إلى كومة الملابس الميتة عند قدميها، قدميها المُتَفتّقتَين كزهرتين. بدا ذلك أشبه شيء بالصحو على عالَم آخر. يسقط من ذلك الجرف على السؤال الذي لم تسأله "الجدة"، وقالت لـ"كريستينا" إنها لا تحتاج إلى مزيد من الماء، وناولتها "ماريا" المنشفة لتجفِّف نفسها، ثم استدارت فلاحظتُ أنا أن "الجدة" قد خرجت، وبقينا، "ماما" وأنا، نتطلّع في ذلك الظهر القوي والوركين المنسابين تحت ذلك الخصر الفتّان، في حين ارتدت هي ثوبها بسرعة وخطت نحو المرآة. بعدئذ أقبلت إلى "فيديليا"، وبصوت واضح عميق شكرتها لاعتنائها بالطفل، ثم أخذ مني. كنتُ - تقريباً - قد نسيتُ أنني كنتُ أحتضنه، وبالكاد أدركت كيف أن يديَّ كانتا قد دلّكتاه

ونظّفتاه وألبستاه بصورةٍ آلية، كيف أنه قد بقي معلّقاً هناك، طوال الوقت الذي كانت أمه تتأهب فيه.

قالت "كريستينا" تحثها بأنها إن لم تسرع فسوف تتأخر:

- "يمكنك أن تمشطي شعرك في الطريق".

أخذت "يانينا" كأنها لم تكن تتذكّر ما هي فيه، كأنها لم تكن تقضي ساعة كل ليلة تمشط شعرها، والآن هاهو ذا أشبه بشلال أسود يسقط بخفة وتوتر، متسق في ثبات مع خضرة الثوب وزركشته البرتقالية. كانت أحياناً تترك "فيديليا" لتمشّطه بينما تتحدّث هي إليها عن الوقت الذي ستشبُ فيه ويصير لها حبيب، وكانت تعدها بأنها لن تسمح له بالابتعاد عنها أبداً. لا إلى الحرب، ولا إلى البحث عن عملٍ في المدينة، وأن عليها أن تعتني بفتاها كما تعتني بنفسها هي. لكننا الآن لم نكن نتحدّث عن أولئك المرشحين. إذ لسنوات عديدة، كان الحبيب شخصاً ما، بعيداً، ولا وجود له. ربما جاء يوماً من ذلك الطرف الآخر للجبل، وسيكون عليَّ أن أعتني به كما أعتني بنفسي. وكرًرت "كريستينا" قائلة: "في الطريق".

ألقت "يانينا" على نفسها نظرةً أخيرة في المرآة، ومضت خارجة إلى الباحة. مضينا بعدها. توقفت هناك برهة، وكأنها تنتظر منّا أن نعطيها توصيةً ما أو نصيحة إضافية، أننا سنرسل لـ"سيرجي" معها شيئاً ما، أو لعلها أرادت فقط أن تفصح لنا بشيء ما، أن تشرح شيئاً.

لم يحاول أحد أو يدرِ ما يقول.

وأخيراً، همست "ألكسندرا":

- "آمل أن يتم كل شيء كما يرام". ذلك أن "ماما" لم تستطع أن تدعها هكذا، صامتةً ووحيدة. آمل أن يتم كل شيء كما يرام.

انتظرت حتى وضعت الطفل، ولم يقل أحد شيئاً، وانتظرت أيضاً وهلة أخرى، وعندئذٍ، استدارت هازّةً شعرها اللامع.

- "لحظة"، قالت "الجدة"، فتوقفت "يانينا"، "لحظة فقط"، كرَّرت "الجدة" وأسرعت تجري إلى البيت، وعادت في الحال ومعها حقيبة. أرتها ما كان فيها، خبز، وبعض الشطائر الباردة، جبن من لبن الماعز، عنب، طماطم.

هزت "يانينا" رأسها موافقة. بالطبع، سيكون جائعاً. وحينئذ رأيناها تنطلق مسرورة، شاكرة. وقد تأبطت الحقيبة بذراعها، والمشط في اليد نفسها، وكان الصغير يتطلّع نحونا من فوق كتف أمه.

جلست "الجدة" وجلسنا بعدها كلنا، من دون أن تنظر إحدانا في وجه أحد، إلا نظرات مختلسة، لم ترد أي واحدة أن تتفوَّه بشيء، تماماً كما في تلك الألعاب التي يخسر فيها أول المتحدثين أياً كان، كنّا جميعاً قد أصبنا بعدوى الصمت. كنّا جميعاً مشغولات بـ"يانينا" لقد تركناها تستولي على عقولنا ومشاعرنا المهتاجة بشأن تسريح الشعر، الملابس، الماء، الخبز، متنقلات الواحدة إلى الأخرى، حتى لو لم تكن هناك من ضرورة لذلك، إذ لم يكن هناك من متسع لأي شيء سوى أن تعد نفسها للذهاب إلى "سيرجي" الحي. حتى "الجدة" لم ترد أن تخدش تلك السعادة البسيطة التي كان من حق "يانينا" أن تنعم بها، ولمَ لا، حتى ولو كان هناك الكثير من الأسئلة، التي ظلّت بلا أجوبة، معلّقة هناك بلا حياة في الهواءِ مثل ظلال تبحث عن أجسادها. هذا هو ما يحدث حين تحل المأساة، أول شيء يفكر فيه المرء هو كيف لا يدع الأطفال يعلمون بها، كيف يشرحها لهم.

لكنَّ "يانينا" قد ذهبت، وبقينا نحن، أشبه بأجزاء عجلة فقدت فجأة محورها، أو الغاية من دورانها ومواصلة سيرها، كنا لا نزال قلقات متردِّدات في الذهاب إلى أي مكان، كنّا هناك جميعاً، دونما أحد لنتحدّث إليه، وبينما كانت العتمة تسقط ببطء، وكنّا عاجزات عن أن نتوقف عن التفكير في ذلك الأمر، وكلما ابتعدت "يانينا" اتسع المجال أمامنا للتفكير

فيما كنّا نفكر فيه، تماماً كالأطفال حين يستقرّون أخيراً في مضاجعهم، فلا يمكنك حينها أن تسمح لأحد بالخروج أو الصراخ، كن عاقلاً، ولتتخلّص من ألمك. وهكذا مكثنا هناك، ذاهلات بصمتنا وجمودنا، ولم ترفع أي منا بصرنا حتى عندما كانت تصدر حركة مفاجئة لتنهض أو تهم بأن تقول شيئاً. كنّا ندرك أننا لن نتحرّك ولن نتكلّم إلى أن ترجع "يانينا".

استغرقت وقتاً طويلاً، ساعات وساعات، وليس ذلك فقط لأنها كانت مشتاقة لأن تكون وحيدة مع "سيرجي" أطول وقت ممكن، أو لأننا تخيّلنا أن يتخذ "سيرجي" طريقاً ملتوياً، بل أيضاً لأن النساء الأخريات سيكون مترقّبات عند المخرج، محتشدات عند باب القائد، لا ليجبن عن الأسئلة الغبية لصحفيّة ليس لها أي رجل غائب عن الأسرة، وإنما ليسألن الأسئلة ذاتها، ليسألن "سيرجي" بالتحديد الأسئلة التي لهن الحق في أن يسألنها تماماً مثلما لـ"يانينا" الحق في أن تنعم بساعات قليلة من الطمأنينة، الحق نفسه الذي هو للطفل في أن يتعرف إلى أبيه. إنهن لن يبقين صامتات معتزات مثل "الجدة"، لأن "سيرجي" لم يكن فقط الرجل الوحيد في أسرتنا الذي عاد بعد عام، بل هو الرجل الوحيد في المدينة والمقاطعة بأكملها، ثم من يدري كم الأميال بقيت، ربما في الحال، ربما غداً، ستبدأ النساء الأخريات في الوصول، أولئك النساء اللائي كنّ في المدرسة لسوف يبدأن في الوصول إلى بيتنا، بضع نساء كل مرة في البداية، وأكثر خلال يومين أو ثلاثة، من أماكن أبعد، من المزارع الصغيرة والقرى والجبال والوهاد، لسوف يجئن، ومن يدري كم من الشهور سيستمر ذلك، من أجل أن يسألن الأسئلة التي لم تسألها "الجدة" في المدرسة، أخوات وبنات عم وحبيبات وأرامل، وحتى عشيقات. لم نرد أن نتخيل الأوجه التي سيجئن بها، نظراتهن الكليمة، لاشك في أنهن سيكنّ مثلنا حين كنّا نتسكّع في الطرقات، نتلمس الأخبار

علَّ سجيناً ما من مستوطنة أو محلة ما على مسافة مئة، أو مئتين، أو خمسمئة ميل، قد ظهر، أي واحدة منا كانت تنطلق راجلةً، على بغل، أو كيفما اتفق، لتبيع أي شيء ولتتسقط الأخبار لعلها تجد شيئاً ما، لسوف يبدأن في الوصول غداً.

وهكذا تركنا الظلام يسقط، لم تنهض أي واحدة منّا لتعدّ شيئاً نأكله، بقينا أسرى الخوف نفتّش عن شيء آخر نقوله، شيء آخر نعمله بأيدينا وسيقاننا وأسناننا.

كانت السماء قد استحالت إلى بنفسجية صافية. فلا تلك السحب الرمادية البريئة في عليائها هناك، ولا حتى تلك النجوم الشديدة البهاء، التي ظهرت أخيراً، استطاعت أن تحرِّرنا من وحدتنا.

ولما صار من العسير على كل واحدة منّا أن تتبيّن الأخريات، شرعنا في الاسترخاء، تاركات لعضلات أعناقنا أن تستريح. وبأعيننا الأخرى التي ليست في أوجهنا، استطعنا جميعاً أن ندرك ما حلّ بـ"الجدة" من تغيير، فهمناه أكثر مما لو كنّا نبصره في وضح النهار. مثلما يتعفّن الحليب، استحالت البهجة التي غشيتنا للحظة إلى عتمة داكنة. سائل ملتهب أسود كان يتصاعد إلى السطح، وكلما أُخفي أو أُهمل كان تصاعده أشد وأقوى. في أي دقيقة، على الفور، عندما تقترب خطوات "سيرجي" و"يانينا" من أي طريق اضطرا أن يسلكاه، في الحال، سيكون على "الجدة" أن تفعلها، لن يكون أمامها عذر القائد أو المراسلة أو المأمور أو أي أحد، ولن تستطيع أن تهمل "يانينا" كل ذلك الوقت الذي ستمنحه "يانينا" لـ"ألكسندرا" لو أن "ديمتريو" كان هو العائد، كانت الجدة قد صارت أصعب وأشد قسوة ومرارة وهي في مقعدها ذاك القريب منّا. كان جزءٌ منها يموت، وكأنها حَجَرة تتفتت ببطء إلى الأرض، أكثر قلقاً بسبب ذلك السؤال الذي لا مناص منه، أكثر إعياءً لأنها لم تكن تدري كيف ستسأله، كيف ومتى سينبعث من حَنجَرتها،

وأكثر من هذا، ما لم تكن "الجدة" تعرفه، ولعلها لم تُرِد أن تعرفه، هو ماذا سيكون رد فعلها حين يجيب عليها "سيرجي"، "الجدة" التي أحست بي وكأني سنونو جريحة، والمسافة الآن تخنق يأس "ألكسندرا".

هكذا بقينا، وكانت المشاعر تترجرج مضطربة في أعماق كلٍّ منّا أشبه بزجاجة ملأى بسائل ذي تأثير سريع معدٍ تريقه بدلاً من أن تشربه، كان كل شيء حريّاً بأن يحدث بمجرّد أن يصلً "سيرجي" ولم يكن أمامنا من فسحة للهدوء، أيّاً كانت أحلامنا الكثار إلا أن رجوعه كان هو الحلم الأكبر والوحيد، رجوع واحد من رجالنا، أخيراً رجل في بيتنا وليس فقط "ألكسيس" الذي يحاول أن يكون رجلاً. لابد أن يتم ذلك قبل صباح الغد، قبل أن تبدأ النساء في المجيء. لو أن "ألكسندرا"، لو أن "فيديليا"، لو أن أي واحدة منّا كانت تقطع مئات الأميال لتسأل غريباً تماماً، واحداً، مثل "سيرجي" فأنى لنا نحن ألا نفعل ذلك معه وفي بيتنا نحن، نحتضنه، ونبكي بحزن واطمئنان، أخته وعمته وزوج أخيه وابن أخيه، يمشي مع "يانينا" في اتجاه السؤال الذي يغلي في شفتَي "الجدة"، موشكاً أن يصل.

هانحنُ أولاء هنا، جامدات بلا حراك كالموتى على مدى ساعات وساعات طوال، كنّا باقيات معتصمات في انتظار... نتوقع... لكنً أي واحدة منّا لم ترد أن تفكّر فيها، أو تفصح بشيء عنها. أو كان ممكناً أننا لم نكن نتوقّع عودة واحدٍ ما حيّاً، سوى عودة "يانينا" بجثةٍ معها إلى البيت سحبتها من المدينة، مدركات، بمرور الزمن أننا قد لا نحظى أبداً بالاستماع لإجابة "سيرجي"؟ لماذا يَدعونه يذهب وشأنه من دون الآخرين، لماذا هو من دون الباقين، وأين كان؟ حقيقة إقصائه، صمته المُوغل في التطاول إلى الحد الذي حال دون أي إمكانية لسؤالٍ واحدٍ أن يُسأَل. كابدتُ لوقف أي خاطرة تدينه، تحاول الخروج قبل أن يتمكّن حتى من الدفاع عن نفسه، حاولتُ أن أؤجل خيال عمي، حاولتُ أن

أستعيد اللحظات التي أخذني فيها مع "ألكسيس" للاصطياد من النهر، النهر حيث الآن، ولكنني كنت دوماً أصل إلى ذلك الشيء نفسه، "الجدة" خافضة رأسها تحدّق في الرمل، وجه الصقر ذاك الذي للملازم وهو يسأل عن اسمي وينظر إلى ساقيَّ، وإلى وجه "الجدة" الشبيه بالقمر المتبدِّد والمتواري خلف سحابة واهنة صفراء. حاولت أن أحصي النجوم، راغبة من جديد أن أكون الفتاة المكتشفة للأوجه وللأسرار بين جوانح عمها "سيرجي"، إلا أن الوجه الوحيد الذي استطعت اقتناءه كان وجه أبي الذي هناك، بعيداً في مكان ما، والسر الوحيد كان غيابه. عندئذ، نظرت إلى يديَّ، واستحضرت دمية كانت هي تلك الدمية التي صنعها لي "سيرجي". لقد استغرقت منه ساعات ليصنعها بيديه تينك البارعتين من أجل "فيديليا"، وحاكت لها "يانينا" لباساً سميكاً صغيراً، ولم أستطع تفادي تذكُر أنني قد جريت لأريها "بابا". "ديمتريو" أخذها، أُعجب بمهارة أخيه، وأثنى على موهبته. كان يضيع وقته كفلاح، له تينك اليدان اللتان يستطيع بهما أن يكسب عيشه في المدينة، كل ذكرى كانت تنتهي مختلطة بـ"ديمتريو" أو بالرجال الآخرين، كما لو أن "سيرجي" كان هو الوحيد الذي مات منهم، الوحيد الذي لم يستطع أبداً أن يعود. أحسسنا أن كل النساء اللائي كنّ في المدرسة، كنّ يتطلّعن معنا في الظلمة، كان لدينا شعور بأن ذلك القادم في الطريق هو "بابا"، "الجد"، "أريستوس"، أي واحد آخر غير "سيرجي".

وعلى حين غرة، مثل صفعة تصعقك في حلم من أحلام اليقظة، ومن دون أن نسمع وقع خطوات، وقف "سيرجي" هناك في ضوء القمر، أمواج وأمواج من ضوء القمر، "سيرجي" أكثر حياة من أي ذكرى لـ"ديمتريو" أو للآخرين، وابنه نائم في حضنه. صدم ضوء الشبح أعيننا لوهلة، فلم نستطع التعرّف إليه، لم نستطع أن نبصر كيف ناول الصغير إلى "يانينا"، كيف تردَّد واضطرب قليلاً أمام النساء. نهضنا جميعاً. لبرهةٍ، لم يدر

"سيرجي" إلى من يتقدّم. كنّا جميعاً متساويات، جسدٌ واحدٌ منهوك، مدّ يده ثم فتح ذراعيه وتقدّم بصمت إلى "الجدة"، لكنها لم تتحرّك نحوه، بل إنها تراجعت خطوة إلى الوراء فتوقف "سيرجي" وسط الظلال كي يتأكّد أنها هي التي فعلت ذلك، ولأول مرة طوال ما انقضى من الزمن، قال شخصٌ ما شيئاً ما، كان على "الجدة" أن تتكلّم.

- "هل وقّعتَ أيَّ شيء؟" كان هذا ما سألته، ذلك، وتذكّرت العديدات منّا كلمات "أب" "الجدة" التي أعلنت ذات مساء أن الشيء الوحيد الذي لا يمكن أن يفعله أبداً هو أن يوقِّع ورقة يضعونها أمامه، منذ سنوات عديدة، مرَّ بتجارب كهذه. لقد سجنوه واحتجزوه شهوراً، ثم رأينا هنا، "كارلوس مايلوناس"، قادراً على البقاء، صامداً في وجه الحياة، وفيما بعد، وعلى البعيد، كان من اليسير جداً على المرء حينها أن يتخيّل ما يجب أن يحدث، من قبل أن يحدث، ولو أن وثيقةً في أي وقت وُضعت أمام أيٍّ منهم، أمام أيٍّ منّا، أمام أسرته، وثيقة عليها توقيعه، حيث أدلى بشيء ما، أي شيء حتى وإن كان قد فعله حقاً، فما كنّا لنصدّقه، لأن توقيعه هو مثل ظلّه، ولا يمكن أن يعطيه لرجلٍ أياً كان. إنهم، الرجال، ابنه بالمصاهرة "ميشيل" وأحفاده الثلاثة – "ديمتريوس"، "سيرجي" و"تيمي" – قد فهموا، ونحن النساء اللائي كنّ جالسات هناك في الخلف يصغين، لاحظن ذلك وتذكّرنَه مع أنه كان شأناً من شؤون الرجال. قلنا لأنفسنا: إنه ما من أحد في هذه العائلة، لا رجل ولا امرأة، ولا حتى طفل أو طفلة مثل "فيديليا" أو "ألكسيس" كان بمقدوره أن يتنفس، كان ذلك مفهوماً، ولا نقطة واحدة بقلم رصاص، لا شيء.

وعلى الرغم من أن "الجدة" كانت قد نطقت بالسؤال الذي كانت كل امرأة من أولئك الست والثلاثين اللائي انتظرن خارج المكتب، وكانت كل واحدة منّا تريد أن تسأله، السؤال الذي سيبدأ منذ صباح الغد، السؤال الذي.. "ألكسندرا" الآن، ونحن منتظرات لرد "سيرجي" عليه.

تقدّمت "يانينا" إلى الأمام، كان شعرها يبدو أبيض لامعاً في ذلك الضوء العجيب.

- "ماما"، إنه لا دخل له في شيء من كل تلك الشؤون السياسية، إنه لم يتورَّط أبداً في هذه الأمور. أنتِ تعرفين ذلك، "بابا" يعرف ذلك و"ديمتريوس" أيضاً، وأنت نفسك".

تراجعت "الجدة" خطوةً أخرى إلى الخلف. سألت:

- "ماذا وقَّعتَ؟"

- "ماما"، لقد أخذوه لأنه من هذه الأسرة. الشيء الوحيد الذي أراده هو أن يعيش بهدوء".

نظرت إليها "الجدة" بإشفاق، مبتسمة نصف ابتسامة، ابتسامة ألم واشمئزاز. تلك النظرة أفصحت بكل شيء. إنه لأمر طيب أن تقف المرأة في صف زوجها دائماً، كان ذلك أمراً عظيماً جداً. كانت مسرورة تماماً أن "سيرجي" قد حظي بفتاة مخلصة جداً، بالأم المناسبة لابنه. لكنَّ "يانينا" لم تنشأ في هذا المنزل، فما كان لها أن تفهم. تلك لم تكن غلطتها، وهذه حقيقة. كانت هناك أشياء لم تستطع فهمها.

إلا أن "يانينا" لم تكن تنوي أن تظل جامدة. تقدّمت إلى "سيرجي" والصغير في حضنها، واقتربت منه بقدر ما استطاعت، بهية خضراء في الظلال.

- "ماذا عساه وقَّع، يا "ماما"؟ ماذا عساه وقَّع إن هو لم يتمكن من إخبارهم بشيء؟ لم يكن لديه أي شيء ليخبرهم به. إنه لم يتورَّط في شيء. لقد آذوه، يا "ماما"، لقد آذوه في حين أنه لم يتورَّط في أي شيء، إنه لم يعترف بأي شيء عن أي شيء، لم يكن يخفي أي سر ليتكتّم عنه. فأي وثيقة كان سيو..".

قاطعتها "الجدة" بإشارة منها. استدارت نصف استدارةٍ ودلفت إلى المنزل. لم تلحق بها أي واحدة منا. لم ندرِ ماذا نفعل. تقدّمت "كريستينا"

لتعانق "سيرجي"، لكنه نظر إليها نظراتٍ غريبة فتوقّفت هناك، قريباً منه، متجمدةً تتأمله.

ورجتنا "يانينا" قائلةً:

– "أخبِرْنَها. قُلنَ لها: إنه ابنها. ابنها الذي عاد. لقد عاد، وهي..."

قالت "ألكسندرا" فجأة:

– "إن كانوا قد قتلوه، قل لي، يا "سيرجي". أستحلفك بالله، قل لي. إن كنت تعرف شيئاً عن "ديمتريوس"..."

هذا هو السؤال، إنه هذا.

مضى "سيرجي" إلى الباب، ومن هناك، وقبل أن يدخل، نطق للمرة الأولى، صوت آخر خرج منه، ليس ذلك الصوت الذي كنّا نتوقعه، ذلك الذي كنّا ننتظره منذ عام، عامين. قال:

– "إنهم يبقونك معصوبة العينين لمدة خمسة أشهر، لمدة خمسة أشهر يبقونك هكذا! . لا ترين أحداً، لا تتحدّثين إلى أحد، ولا أحد يتحدّث إليك. لقد كان من العسير عليَّ أن أتذكّر تماماً وجه "يانينا"."

ودخل.

فتحت "الجدة" الصندوق الذي نحفظ فيه الملابس. أخذت تنفض الغبار عن بعض القطع التي ينبغي ارتداؤها، تماماً مثلما كانت تفعل في المرة الأخرى، تلك المرة التي أخبرتنا فيها بأن علينا أن نذهب إلى النهر، كان على الأسرة مجتمعة أن تستعد، عليها أن تبقى ساهرة يقظة على "ميشيل"، هيا. هذه المرة لم تقل شيئاً. أخرجت فقط ملابسها.

– "ماما"، قال "سيرجي".

استمرّت "الجدة" فيما كانت تفعله كأن لم يحدث شيء، كأن لم تسمع أحداً. أخرجت ثوباً، أفضل أثوابها. الثوب الذي ارتدته لحفلات التعميد، للأعراس، للحفلات الكبيرة، وهزّت رأسها كأنها تتذكّر شيئاً ما، تستحضر شخصاً ما. عندئذٍ، طوته ثانية، ومسّدته، ثم أعادته إلى الصندوق.

- «"يانينا"، نادت الأم عبر كتفَي ابنها الذي كان تقريباً إلى جوارها. "يانينا"، "سيرجي" متعب. أعتقد أنه سيكون من الأفضل لو أنكِ تدعينه ينام. فغداً سيكون يوماً طويلاً».

دخلنا كلنا وشاهدناها تخرج الملابس وتعيد ترتيبها. قالت "هيلدا":

- "كيف يمكنكِ أن تكوني قاسية هكذا، يا "صوفيا"؟ إنه ابنكِ. إنه الوحيد الذي بقي حياً".

قالت "ألكسندرا":

- "ديمتريوس" سيعود. أنا أعرف أنه لم يمت. "سيرجي"، أليس صحيحاً أن أخاك سيعود؟

- "لقد فرَّقوا بيننا في اليوم الثاني". ردّ "سيرجي" مديراً ظهره، لا ولم أرَهُ منذ ذلك الحين".

لم يكن "سيرجي" حتى يتحدّث إليها، وكان يردّد بسذاجة مرة بعد أخرى الحكاية نفسها لأي امرأة تسأله السؤال نفسه. كان في مكان آخر، وكأنه لم يعتد بعد فكرة أنه في منزله، وأنه يقابل أمه التي ترجع بجوار الصندوق، زوجه وطفله القريبين منه، زوج أخيه تسأله الأسئلة التي طالما سمعها طوال بعد الظهر، أن عليه أن يجيب ثانية غداً وفي اليوم الذي يليه وكل السنين القادمة.

قالت "ألكسندرا":

- "لو أن شيئاً قد حدث له، فسأعرف، يا "يانينا"، لسوف أعرف ذلك هنا في أعماقي، يا "يانينا"!"

فرغت الجدة من زم حزمة من الملابس التي اختارتها. وهاهي تنهض الآن، وتتجه إلى الطاولة التي وضعت الصور عليها. أخذت صورة أبيها، ثم صورة زوجها، وأخيراً صورة "ديمتريوس"، ووضعتها جميعاً فوق الملابس التي عند قدميها. نظرت إلى صورة "سيرجي".

أدارت رأسها لتتأمل "سيرجي" نفسه الذي كان واقفاً هناك. ثابتاً بلا حراك، ثم وضعت الصورة مع الأخريات. كما لو أن الابن صار أيضاً ذكرى، واحداً يجب أن يبقى في الذاكرة مع بقية الرجال في الأسرة.

تقدّمت "الجدة" إلى "يانينا" وأخذت الكيس من يديها. رأت أنه لم يبق فيه شيء تقريباً، بعض فتات الخبز، قطعة لحم باردة.. بحثت عن بعض الجبن على الطاولة، وعن شيء من الخبز.

- "فيديليا"، غداً ستحضرين لي بيضاً، اسلقيه، وائتِني به، يا عزيزتي".

أخذت صرتها ومضت نحو الباب. قبل أن تخرج، استدارت وأشارت بإصبعها ناحية أختها.

- «"هيلدا" هي المسؤولة. حتى يرجع "ألكسيس" أو أنا».

ما من واحدةٍ أرادت أن تنظر إلى "سيرجي".

وسألت "كريستينا"، على الرغم من أننا جميعاً نعرف الإجابة:

- "إلى أين أنت ذاهبة، يا "ماما"؟

لم أرد أن أسمع الكلمات التي كانت "فيديليا" و"ألكسندرا" خائفتين منها منذ أن أخبرت "الجدة" "يانينا" أن تخلع ثوب الحداد، لم نرد أن نكون هناك لنسمع ما كانت "الجدة" تعده لما بعد الظهر، منذ اللحظة التي خرج فيها "سيرجي" من باب المدرسة.

- "إلى أين أنا ذاهبة؟ نظرت "الجدة" صوب "كريستينا" مندهشة. "إلى النهر، إلى النهر، إلى أين عساني أذهب".

- "إلى النهر"؟

- "نعم". قالت. "إلى النهر. أنا ذاهبة لأنتظر ابني".

الفصل السادس

-٩-

- "تستطيع أن تبدأ الآن" قال القائد. "أنا شغوف جداً لأعرف تفاصيل رحلتكَ".

قال المأمور: «إن كل شيء تم تماماً كما أراد القائد. كانت الدعوة قد أُرسلت. "فيلي كاسترويا" آتٍ لتناول العشاء. فقط، مشكلة بسيطة ظهرت في البداية».

- «مشكلة بسيطة؟»

- «نعم، يا سيدي. عندما وصلا، لاحظ المأمور أن الحارس في البوابة الرئيسة كان شخصاً جديداً. ويعود ذلك إلى "سيسيليا". لم يتعرف إليه الحارس – بطبيعة الحال – وأعلن أن لديه أوامر بألا يسمح لأيٍّ كان. وفهم من ذلك أن الرسالة قد وصلت.

- «وماذا فعلتَ؟»

إذا ما سمح له القائد بتعقيب ما، فإنه على الرغم من كل شيء كان مقتنعاً أن الحراس كانوا يؤدُّون واجبهم على أكمل وجه في حراسة العائلة وحماية ممتلكات "فيليب كاستوريا". لكنَّ تلك الأمور لا تعنيه، فالحارس ببساطة لا يعرفه. وبالنسبة للمأمور، يكفيه أن يشرح للرجل من هو، ما دام الحارس قد سمع بالطبع، ويسوّي كل شيء. فتح البوابة ورافقه إلى المنزل. إن لم يمانع القائد في أن يقول هذا، فهو قد وجد الحارس، ووجد آخر تمكّن من تبادل بضع كلمات معه، متوترة إلى حدٍّ ما. إن الشائعات التي لا أساس لها قد وصلت – حتى – إليهم.

- «حسناً. وهل دخلتَ إلى المنزل بمفردكَ، أم إنك دخلتَ مع صديقتكَ؟»

- «لا، يا سيدي، لقد بقيت منتظرة في سيارة الجيب».
- «وكم استغرقت محادثتكَ مع السيد "كاستوريا"؟»
- «ثلاث ساعات».

[عندما رجع "عمانويل" صعد إلى الجيب، لم تُرِد هي أن تشكو أو تسأله عن أي شيء في الحال. وهو لم يقل شيئاً بدوره، على الرغم من أنه كان يغلي داخله. كانت الشمس قد ألهبت مقعد السائق، وكانت عجلة القيادة قد صارت فعلاً عصية على اللمس. ومع ذلك، فقد أدار المحرك، ودار بها في رحلة العودة. قبل أن يزيد من سرعة السيارة، رفع يده محيياً الحارسين اللذين كانا يرقبانهما، ممسكَين ببندقيتهما، وراء البوابة الرئيسة. وخلفهما كان يقف "كاستوريا" الطويل بشعره الأشقر وجثته العريضة، يلوِّح بلطف تحية الوداع، رفس "عمانويل" دواسة البنزين، فقفزت العربة منطلقةً إلى الأمام، وهي تصدر زئيراً عالياً. هبَّ نسيم بارد على العربة، وما إن اجتازت أول منحنى من الطريق حتى غابت البوابة والرجال الثلاثة عن الأنظار، هل قال لها: "كان باستطاعتك أن تنزلي وتجلسي في الظل، أليس كذلك؟».

- "لقد قلتَ لي أن أبقى هنا فبقيتُ".

انتظرته حتى يجيب، ولما لم يقل شيئاً، سألت:

- "عمَّ تحدّثتما؟"

بدا صوته خشناً شبيهاً بواحدةٍ من تلك التلال المغبرَّة بلا حدود والتي تحاذي الطريق.

- "لا شيء. شغل رجال. أشياء لا تعنيكِ ولا تهمكِ".
- "شغلٌ من أشغالكَ ولا أكون مهتمة به؟ كيف عرفت؟"

لم يحوِّل بصره عن الطريق، ولم يتغير شيء في صوته وهو يقول:

- "لأنكِ امرأة، والنساء لا يعرفْنَ أي شيء في السياسة. هذا هو السبب".]

- "ثلاث ساعات"، ردَّد القائد: "إذن، فالسيد "كاستوريا" كان موجوداً؟"

- نعم، يا سيدي. لقد وجدتُهُ مع أخيه وزوجه وهم يشربون الشاي في أحد الصالونات. هل يودُّ القائد تقريراً مفصَّلاً عن المحادثة؟"

- "أخبرني بكل شيء".

رفع "عمانويل" نظره عن الطريق لثانية، وألقى عليها نظرةً جانبية سريعة: "أودُّ أن أعرف شيئاً واحداً فقط. ما الذي يضايقكِ؟ ذلك لأن هناك شيئاً ما. شيئاً ما يضايقكِ. هذا مؤكّد".

- "لقد سألتني ذلك من قبل".

- "وهأنذا أسألك مرةً ثانية".

- "لقد سألتني منذ ساعات".

أشارت فجأة صوب طريق الجبل الذي أخذت السيارة تصعده، كما لو أن السؤال كان ينتظرهما هناك. أضافت:

- "وأنا لا أجد أن شيئاً قد تبدّل. لا شيء يضايقني، لقد أخبرتكَ بذلك من قبل".

- "حسن، ليس هناك أي شيء، إذن. يسعدني ذلك".

- "لعلكَ أنتَ متضايق؟ فَلْنَرَ إن كنتَ ستخبرني. ما الذي يشغلكَ؟"

- "أتودين حقاً أن تعرفي؟"

ابتسمت.

- "نعم، أنكَ تصير بشعاً حين تقلق، بشرتكَ تتجعَّد كلية، هنا وهناك" ومسحت بأطراف أناملها البشرة المحيطة بزاوية فمه. "وهكذا، فإنكَ إن لم تحدثني بما يدور بذهنكَ، استطعتُ معرفته على الفور من خلال النظر إلى تلك التجاعيد. إنكَ لا تستطيع أن تخفي عني أي أسرار. لسوف أعرفها جميعاً، حتى آخر واحدٍ منها".

- "أتريدين حقاً أن تعرفي؟"

- "نعم".
- "كنتُ أفكر ببيتي".
- "بيتنا؟"

قرر ألا يجيب. وأشار بيده إلى واحدٍ من التلال التي أخذت تفقد خضرتها، ولم يعد النسيم شديد البرودة بعد أن اجتازا الوادي الخصب.

- "لم يتغير شيء، هذا أمر لا يصدق". أرخى قدمه عن الدواسة عندما اقترب من أحد المنحدرات. "كنتُ أجيء إلى هنا حين كنتُ طفلاً، قاطعاً أميالاً وأميالاً، فقط، كي أشاهد مهرجان خضرةٍ كهذا. أدري أنني ما كنتُ أستطيع الدخول، ولم يكن المالك ليسمح بهذا، ولا كان أبي أيضاً. وحتى في ذلك العهد، كان المكان كله مسيّجاً. مسكين هو الطفل الذي كان يُقبض عليه في بساتين الفاكهة".

قالت:

- "شيء مؤسف، لكنكَ التقطت الكثير من الفاكهة، أليس كذلك؟"
- "ولا تفاحة واحدة. لا تسأليني لماذا، لكني شعرتُ أن واجبي — حينها — كان أن أحمي الفاكهة، أن أحمي ممتلكات المالك. من الجانب الآخر للأسلاك، كنتُ أخيف الطيور وأصرفها، هذا ما كنتُ أفعله".
- "أنتَ لم تأخذ أي فاكهة؟ فلِمَ، إذن، كنت تجيء؟"
- "من أجل الخضرة. نعم، هذا هو ما كنتُ أجيء من أجله. كان يكفيني أن أتطلّع إلى حدائق المنزل من بعيد، من قمة تلة مجاورة. وحتى في ذلك العهد، أدركتُ ولا أدري كيف، لكني شعرتُ به في عظامي مثلما أعرف أن الله موجود وهدأت، كل أحزاني، وغضبي انتهى، عرفتُ أنني في يومٍ ما سوف أخرج من منزلي، أخرج من قريتي. عرفت أن تلك الصخور ما كانت لتحبسني خلفها إلى الأبد. عرفت أنني سأفعل أي شيء كي أغادر. أي شيء. مؤكّد".
- "وهل عرفتَ أنكَ ستفعله معه"؟

نظر إليها متحيراً، لطيفاً:

- "لسوفَ تضحكين، غير أن هذا صحيح. عرفتُ ذلك أيضاً".

- "نستطيع أن نمرَّ من هناك ونشاهد منزلكم. إنه ليس بعيداً من هنا، أليس كذلك؟"

- "يبعد عن منزل المالك نحو ست ساعات سيراً على الأقدام.... أما بالجيب فنستطيع أن نقطع المسافة في أقل من نصف ساعة".

- "ست ساعات سيراً على الأقدام؟"

- "في كل أحد، ما كنتُ أهتمُّ بما سيفعلونه بي عندما أرجع. في كل أحد، قبل أن يستيقظ أحد أكون قد غادرتُ وقطعتُ شوطاً كبيراً من طريقي. وفيما بعد، كان أبي يضربني ضربةً لا تنسى. عُدتُ مرة عند الغسق، وقابلتُه هناك منتظراً غيابي. حدثتني أختي مرةً أن أول شيء كان يفعله أبي في تلك الآحاد هو أن يأتي إلى سريري ليرى إن كنتُ قد فعلتُها ثانية، وبعدئذٍ يجلس هناك قريباً من الباب طوال اليوم ينتظرني حتى أرجع. كل أحد. ومع هذا، فإنها كانت تستحق كل ذلك".

قالت:

- "هيا نذهب. إن أمامنا المزيد من الوقت، وأنا مشتاقة جداً لزيارة المنزل الذي ولدتَ فيه".

ضغط "عمانويل" على دواسة البنزين فطغى صوت المحرّك العاصف على صوت إجابته التي جاءت في صورة همس بذيء.

- "ما الداعي؟ لا شيء يستحق المشاهدة، منزل مثل أي منزل آخر. مثل منزلكِ الذي في "لونغا". منزل قذر".

- "المكان الذي ولدت فيه لا يمكن أن يكون بالشكل الذي تتحدّث عنه. هيا، فلنذهب".

- "لا، بعد بضع سنوات، ربما".

- "عندما نعود من المدينة؟"

ردَّد متشكّكاً:

- "عندما نعود من المدينة؟ بالتأكيد، حينذاك، ربما".

- عَذُب صوتها وهي تقول:

- "هل تدري ما الذي أتمناه؟ كم أتمنى لو أني عرفتكَ حين كنتَ صغيراً، صغيراً بالفعل".

- "ولماذا"؟

ثم تبسم فرشحت الكراهية من جسده.

ولوهلة، أحساً معاً كيف استقرّت يده على تنورتها، على الفخذ تحتها. أخذت يده في يدها. سحبها بامتعاض وأعادها إلى عجلة القيادة.

- "لأعتني بك، لأحميكَ، لابد أنك بكيتَ كثيراً، أليس كذلك؟"

قال بحدة وفظاظة:

- "لم أبك أبداً. ولا حتى عندما ولدتُ. لو قلتُ لك.. إن أمي تقول إنني صرختُ كثيراً، لكني لم أذرف دمعة واحدة. ليس في أي دموع. وما من شيء على الإطلاق يمكن أن ينتزع مني قطرة واحدة. أعتقد أن هذا هو ما كان يغضب أبي العجوز ويثير غيظه. لعل ذلك هو السبب في أنه كان يضربني بقسوة بالغة".

- "يا لَتعاسة حبيبي الصغير".

- "تعاسة؟ مطلقاً لا. كنتُ أستحقُ ذلك. كنتُ أعرف أنه ما كان ينبغي لي أن أقوم بتلك الرحلات. وكان عليَّ أن أدفع الثمن. لا شيء بالمجان في هذه الحياة. وإذا لم يسلموك الفاتورة اليوم، فستصلك غداً. تأكّدي من ذلك، لو أن طفلاً من أطفالي اتصل بأعدائي، فسأفعل الشيء نفسه".

- "تفعل ذلك مع طفل من أطفالنا؟"

فجأة داس على الكوابح. انحرفت السيارة قليلاً عن الطريق، إلى حافة الهاوية. أطفأ المحرّك واستدار في كرسيه ليواجهها. خلفها، كان

الوادي يتراقص أخضر مزدهراً، وكانت غزارته وحيويته لا تتفق مع ذلك الوجه البني، ومع عينيها السوداوين الحزينتين المتلألئتين.

- "إننا في حرب، يا "سيسيليا" . هل تدرين ما الحرب؟"

أغمضت عينيها، ومن دون أن تفتحهما، أجابت:

- "أعرف بعض الشيء. ما الحرب، نعم".

- "تنحاز إلى أحد الجانبين، وإن خسرت فإنكَ.. لقد قررتُ منذ وقت مبكر، في أول الأمر رأيتُ هذا الوادي، مالكَ الأرض، إن والدي العجوز كان في الجانب الخاسر، لقد خسر سلفاً. هل تعرفين ماذا"؟ إنني — حتى — لم أقرِّر ذلك. جزءٌ ما من نفسي حزر ذلك دوماً. وهذا هو السبب في أنه لم يكن يريدني أن آتي إلى هنا. لا أحد من الرجال كان ينبغي له أن يعمل مع "فيليب كاستوريا"، هكذا قال. وقال: إن عائلة "كاستوريا" أخذت الأرض التي كانت لنا عن طريق الاحتيال والقوة، ومن يدري كم من العقود والقرون قد مرّ على ذلك. كان يدري أنني لو جئتُ إلى هنا فإنني سأقع في حب هذه الأرض، وأنني في نهاية الأمر سأصير من رجال "فيليب كاستوريا"."

- "وماذا قلتَ عندما حدث ذلك؟ هل تبينتَ أنك نلتَ حق الاختيار"؟

- "لم أقل شيئاً. أنا لم أقل شيئاً أبداً. فقط، في يوم ما لم أعد. ولم أرَهُ ثانية أبداً. لابد أنه قد ظلّ واقفاً هناك بباب البيت ينتظر عودتي، ممسكاً بالسوط وعيناه ترصدان الأفق. لا بأس أنه كان يضربني. لقد كان ذلك واجبه. كان يعرف ذلك وكأنه يراه رَأْيَ العين. وأنني سأنحاز إلى الطرف الآخر. كان يدرك ذلك أيضاً. إن للرجال طريقتهم في معرفة هذه الأمور. أنت لا تستطيعين أن تفهمي. كان نادراً ما يلقاني، ولابد أنه ما إن رآني حتى أدركَ أن هاهو ذا شخص نافع. كنتُ أذود[1] العصافير وأخيفها وراء السياج، من دون أن أدخل إلى البستان. وذات يوم أحد،

1 - أذود: أدفع وأطرد.

انفتحت البوابات فانطلق خارجاً على ظهر حصان وبرفقته رئيس العمال. أقبل مباشرة إلى حيث كنتُ. إنه لم يلقِ حتى التحية بل سألني هكذا: "تريد عملاً، أليس كذلك، يا ولد؟"، "نعم، سيدي" أجبته. لم أخفض بصري. نظرتُ إليه تماماً. "أنتَ مستأجر"، هذا ما قاله لي، وقبل أن يمضي في طريقه، مازلت أذكر شيئاً آخر أيضاً، أتعلمين ما قال؟"

- "لا". ارتجف صوتها.

- "قال، "إن عليكَ أن تقتل العصافير التي تأكل الفاكهة. وبهذه الطريقة فلن تعود ثانية". وحينها، علمتُ أنني لن أرجع إلى البيت. كنتُ في الرابعة عشرة. ولم أرَ أبي أو أختي ثانيةً منذ ذلك الأحد".

- "كان على أحد ما أن يخبر أباكَ بأنكَ كنتَ ستصير ذا شأن".

أدار "عمانويل" المحرّك ثانية.

- "ذو شأن؟ من قال: إنني ذو شأن؟"

- "أنا التي تقول هذا".

- أوه، حسناً. المسألة مختلفة إذن".

- "وبالنسبة للقائد وللآخرين أنت شخص مهم، وأحسب أنكَ كذلك لدى "كاستوريا"".

- "مهم"؟ أطلق السيارة بغضب تقريباً.

- "لقد تبينتُ ذلك الآن". حتى حين كنتَ صغيراً. هذا شيء تعرفه النساء. لكنكم معشر الرجال لا تستطيعون إدراكه".

- "أنت تحبين الأطفال الصغار كثيراً، أليس كذلك"؟

- " كثيراً، كم أودُّ أن يكون لي ملايين وملايين من الأطفال".

ابتسم.

- "ملايين.. عدد مُبالغ فيه قليلاً.."

- "آلاف، إذن. ولهم كلهم عيون مثل عينيك".

- "في المدينة لا يمكنك أن تنالي الكثير من الأطفال كما في الريف. أنت تعرفين ذلك؟"

- "هل تسمح لي بأن أسألك: لماذا لا؟"

لكنه لم يجبن بل قال وهو يوقف السيارة:

- "ها نحن قد وصلنا".

أمل الحارس ألا تخذله ذاكرته. كان يحاول ألا تفوته أيٌ من التفاصيل الدقيقة المهمة. سوف يبدأ بإلقاء التحية على "بياتريس كاستوريا" والرجلين. لقد بدَوا مسرورين أيضاً لرؤيته بالذات بعد كل ذلك الوقت من الغيبة. كانت قد انقضت عدة شهور منذ زيارته لهم. منذ أن تغيّر قائد المنطقة. "بياتريس كاستوريا" طلبت منه أن يجلس، على الرغم من التراب الذي أقبل به معه من الطريق، وقدمت له مشروباً لم يبدِ رغبته فيه. أنَّبته مازحة. لعله من الناكرين للجميل إذ سيأخذ في النأيِ عن مرؤوسيه السابقين. فأجاب أنهم ليسوا سابقين، وأنه يعدُّ نفسه دائماً في خدمتهم، لقد كانا مثل والديه حين كان...

- "صحيح أنني سألتكَ عن التفاصيل"، لكنْ قال القائد متذمِّراً: "لكنْ باستطاعتكَ أن تغفل التأريخ الشخصي".

اعتقد المأمور أن ذلك الجزء من المحادثة ربما أثار اهتمام "القائد"، مادام أنه هو الذي أتاح الفرصة لسماع آراء "فيليب كاستوريا" وآراء أسرته التي تتصل بالوضع الراهن، وهذا هو الجزء الأساسي في تقريره.

تطلّع إليه القائد صامتاً برهة. ثم انهمك يلف سيجارة، وقد غشيته بعض الكآبة. سرح بناظريه من خلال النافذة وأخذ يتأمل ضوء القمر المشرق الذي انساب خلسة من وراء التلال، إشراقة رقيقة نادراً ما بلغته، فانزعج بسبب ذلك البريق المستفزِّ المنبعث من القنديل المعلّق فوق المكتب.

عندئذٍ قال:

- «"عمانويل" — كانت تلك أول مرةٍ يتلفظ فيها باسمه، ذلك أنه لم يخاطبه رسمياً — "قل لي. أكانوا حقاً بالنسبة لك مثل والديك"؟»

[قال "عمانويل":

- "فلنتوقف هنا".

- "لقد قلتَ أن ليس أمامنا وقت".

- "كان ذلك غير صحيح. إن أمامنا الكثير من الوقت. هذا المكان.. أريدكِ أن تتعرفي إليه".

إنه النهر. النهر ذاته. في هذه البقعة العالية في الجبال، للنهر صوت مختلف، إذ لم يصطبغ بعدُ بالطمي الذي يلوّنه على مدى أمتار في الأسفل، لكنه هو النهر نفسه، ذلك الماء الذي يعرف كيف يتدفق، المجرى الذي تتخلّله الصخور. لطالما اغتسل فيه طوال حياته، منذ أن تفتحت ذاكرته على الدنيا، لطالما قَدِمَ إلى هنا باحثاً عن العنزة الضالة، لطالما لعب هنا أولى ألعابه، منذ أن شرعت الحكايات تنسج خيوطها الأولى. ذلك النهر، النهر، ما كان ليخطئه.

ترجّل وانتظرها أن تتبعه. غير أنها ظلّت في السيارة، زائغة العينين، وقد غشيهما النزق وهما تجوسان بقعة محدَّدة خلفه، ولكنها متحوّلة ماضية باتجاه الشاطئ.

اقترب "عمانويل" من النافذة ووضع ذراعيه كليهما على الباب.

- "هيا". لكنها لم تتحرّك. "هيا، ألا تسمعين؟"

- "لا أريد أن أسمع".

- "لا تريدين؟"

- "ليس هنا. لا".

قال:

- "نعم، هنا، هنا بالضبط، تعالي معي، سأشرح لك لماذا هذه البقعة بالذات".

- "مهما قلتَ". ولم تتزحزح من مكانها.

شيءٌ ما، عابثٌ في خدي "عمانويل"، شيءٌ بين المرح والإحساس بالفخر تراقص في وجهه. "انظري، يا "سيسيليا"، إني أقول لك، لا

تقلقي بشأن النهر. إنه لا يرى أي شيء. وإن فعل، فإنه لا يقول إلى أحد. ما عدا الأشياء التي يستطيع الإخبار عنها".

فتح الباب، وأخذها من يدها. لم تمانع، دعته يقودها، وكانت اللامبالاة، والغموض يغلّفان عينيها المضطربتين. مشيا فوق الصخور، ماضيين عشوائياً. وكأنه قد استجمع كل الإرادة الممكنة، كما لو أنه وحده هو والنهر الموجودان الوحيدان، أما هي فلم تكن أكثر من شيء، مجرّد شيء له قدمان، وذراعان، بعض العظام التي حدث أن وُجدت مصادفة هنا الآن، العينان الرماديتان المحترقتان بدتا وكأنهما. هما الشيء الوحيد الحي في جسدها الأنثوي الذي يقوده رجلٌ ما].

أكانا حقاً مثل أبوين له؟ لعلي قد تطاولت قليلاً، يا سيدي، إذ قلتُ هذا، لعلّي ذهبتُ في التعبير أبعد مما ينبغي. استناداً إلى حقيقة أن ذلك قد ورد في المحادثة، حسناً، فقد شعر بالحاجة لأن يرويها على ذلك النحو، كما حدثت. ومع ذلك، فما دام قد سُئل مباشرة، فإنه قد بسط رأياً. نعم، في الحقيقة، إن السيد وزوجه "بياتريس" – مع الأخذ بالحسبان المسافة بينهما وبينه – ومن دون تجاوزه لمكانته، ومن دون أن يعزو إلى نفسه أهمية كبيرة – فإنهما قد عاملاه دوماً بمراعاة، باحترام، وحتى – إذا لم تضايق الكلمة "القائد"، بود. لقد شجعاه دائماً أن يتغلّب على جهله، أن يكمل تعلّمه للحساب. لقد اقترحا عليه قراءات معينة، وظلا يرقيانه إلى مناصب الثقة. ومن بين الخدم أجمعين، أراه "السيد كاستوريا" دليلاً على أن كل شيء ما كان ليضيع سدى، فهاهو ذا أمامهما مثلاً حياً على ما يمكن أن يحققه المرء إذا ما كانت لديه الإرادة. وأخيراً ما عسى صبي قروي أن يطمح إليه أكثر من أن يحظى بخدمة أقوى رجل في المنطقة، وواحدٍ من أعظمهم تأثيراً في حياة المقاطعة، بل ربما الأمة.

قال القائد:

- "حسن، حسن. الولاء هو أحد حصون بلادنا. هو الذي يحفظ كل شيء مرتبط ببعضه. لكني سألتكَ عن شيء آخر. شيء آخر تهمني معرفته".

كان القائد هو الذي يتكلّم وحده؟. وكان هو في خدمته.

- "من غير أسرة، يا "عمانويل" نضيع. إننا مدينون بكل شيء لآبائنا. ميلادنا، تعليمنا. وعرفاننا بالجميل. بيد أن هذا هو ما قد نجم عنه الصراعات. افرض، لنَقلْ، إنه وجد فجأة تناقضٌ ما. حسن، ليس بالضرورة أن يكون تناقضاً، فلنسمه سوء تفاهم، بين سيدكَ وبين الجيش، من يدري، خلافاً في الرأي.. إن هذا محتمل، أليس كذلك؟"

[بين كل الصخور، كانت هناك شجرة واحدة فحسب، ضخمة، نضرة، محوطة بشجيرات صغيرة تحجب منظر الطريق. ذهبا ليجلسا في ذلك الظل المغري. كان "عمانويل" على صواب. فما من أحد يطرق هذا الممر أبداً. كانت البقعة أشبه بمنزل، أو شيء كهذا. وخارجه، كانت الشمس تلهب الأرض بقسوة مبدِّدة الهواء.

- "لماذا صرت بعيدة هكذا؟ تعالي هنا".

دنت بجسدها قريباً من جسده. نظرت إلى يده موضوعة بخفة على ثوبها، وتتحرّك عابثةً نحو ركبتها التي كان يحسها تحت يده، ثم ما تلبث أن تصعد ثانية إلى الأعلى. وضعت سترته على جذع الشجرة وأخذت تحملق في النهر، قائلة:

- "هأنذا صرت قريبة منكَ".

- قرَّب شفتيه من شعرها. وكانت أصابعه تجوس بفرح عبر أوتار رقبتها المتوترة، حتى وصلت إلى ما تحت ملابسها وأخذت تعبث بحلمتيها. كرّر اللعبة لاحساً أذنها، آملاً في شيء. من الاستجابة. توقف قريباً من شفتيها. ممسكاً إياها كما لو كان أحدهما أعمى. وفجأةً قال:

- "شيءٌ ما خطأ. لا أحد يستطيع أن يقنعني أن لا شيء خطأ. ألم يحن الوقت لتخبريني ما هو؟"

- "أنا لا أحب هذا المكان، هذا كل ما في الأمر. من الأفضل أن نذهب.. لقد تأخرنا".

حاول أن ينظر في عينيها لكنها تحاشت عينيه، وواصلت التحديق في النهر، مدهوشة من حركة جريانه، ولونه، وصوت صخوره النائمة. لم يكن هنالك من شيء يتعلّق بالنهر.

رأى أن يبدّل الوضع، متدبراً أن يسند رأسه إلى حجرها حيث يتمكّن من التطلّع إلى أعلى في وجهها وهما يتحدّثان. أخذ بإحدى يديها وراح يمررها في شعره.

ابتسمت بمودّةٍ وشرعت بعفوية تعمل على ابتكار حبكة محكمة تفوق ما عداها.

- "هل تدرين لماذا أحبّ هذا المكان؟".

لم تجب.

- "هيه، يا بنت، "سيسيليا"، إنني أحدثكِ".

- "نعم، يا حبيبي".

- "لم تكوني تصغين إليّ".

- "لقد سألتَ إن كنتُ أعرفُ لماذا تحبُ هذا المكان؟".

هناك في الأعلى بعيداً عن جسدها، عن وجهها، كانت أوراق الأشجار متوهجة وقد اخترقتها أشعة الشمس، كثيفة متلألئة، وجعل أحد اليعاسيب يطنُ طنيناً متواصلاً وهو يحوِّم راسماً حدود الفضاء المجاور.

- "من قبلُ، كما تعرفين، كنتُ أجيء إلى هنا معظم الوقت".

- "من قبلُ"؟

- "من قبل أن يطلب مني "كاستوريا" أن أذهب مع القائد "جيورجياكس"، اعتدت أن آتي إلى هنا بمفردي. حين كنتُ أجد متسعاً من الوقت. كنت أتمشى على شاطئ النهر. هل تعرفين ماذا كنتُ أفعل؟ كنت أسلّي نفسي بقذف الأحجار إلى النهر. وكنتُ أبقى أفعل ذلك حتى

لم يكن يتبقى حولي شيءٌ منها سوى بقعة عارية. ثم أنتقل بعد ذلك بضع ياردات، وأشرع بقذف أحجار أخرى. كنتُ أقضي ساعات وساعات على هذا النحو. حين كنتُ صغيراً كنتُ أحسب أنني لو مكثتُ طوال اليوم فإن من الممكن أن أملأ قاع النهر وربما أغيّر مجراه".

- "سدٌ؟ لقد حاولنا أن نبني سداً أيضاً".

- "هذه مسألة أخرى. لأنني لم أضع الأحجار في بقعة واحدة، كنتُ ألقيها فيه لأسمع صوتها، لكني توقفتُ عن هذا ذات يوم. لقد تبين أمرين اثنين". صمت ينتظر، لكنها لم تقل شيئاً. "تبينت أن ذلك ما كان يمكن أن يحدث أبداً. فالنهر لم يتغير أدنى تغيير. والأمر الثاني هو أنه حتى لو قُدِّر لي أن أحرز بعض النجاح، فإنه كان بلا هدف، ذلك أن الشيء الوحيد الذي كان سيتم هو أن المجرى سيختلف قليلاً، هنا في هذه البقعة من الشاطئ حيث نحن، وعندئذ كان عليّ أن أبدأ من جديد في فعل ما فعلته مدحرجاً الصخور من البقعة الجديدة في الشاطئ إلى قاع النهر، وهكذا إلى ما لا نهاية. غير أنني لم أرمِ صخرة أخرى أبداً إلى النهر".

قالت:

- "يا لَسذاجة ما كان يفكر به حبيبي العزيز"! لكنه استطاع أن يبصر في عينيها تيار النهر المغبر الذي جرى صوب "لونقا" صوب مكان لم يكن موجوداً هناك.

- "لكني أحببتُ ذلك لأسباب أخرى. لقد أحببتُ ذلك من أجلكِ. نعم من أجلكِ أنتِ. ما كنتُ آتي إلى هنا بمفردي، لقد كنتُ أحلم بكِ. بعينين مفتوحتين تحت هذه الشجرة تماماً. كنتُ أجلس هنا هكذا كما أجلس الآن ويداي معقودتان خلف رأسي، طبعاً، لم يكن حجركِ الجميل موجوداً حينها، وكنتُ أحياناً أهمّ بمناداته فيما يشبه البكاء، أناديكِ. كنتُ أرى طيفك بكامله تحفّه الأوراق وقد أخذ يختفي من بقعة ليظهر في أخرى".

كانت في تلك اللحظة تقول في نفسها إن ذلك مستحيل، فهو لم يكن حتى قد تعرّف إليها، فكيف يمكن أن يحدث شيء كهذا. انتظر برهة علّها تقول شيئاً ما، متنبهاً لمقاطعة ذلك الطنين المقلق للأعصاب والصادر عن اليعسوب. ثم واصل حديثه قائلاً:

- "لم تكن أي فتاة أخرى. بل كنت أنت. حتى من قبل أن ألتقي بك. كنتُ دائماً في انتظارك. كنتُ أجلس متأهِّباً لكِ هنا، يا حبيبتي. حبيبتي، كنتُ أنتظرك هنا في هذه البقعة بالذات. هنا. وهذا هو سبب حبي لهذه البقعة، لأنها هي البقعة التي احتجتُ إليكِ فيها. وكنت أنت تتطلّعين هناك إلى النهر، هذا النهر نفسه. إنني.... لسوف تضحكين عليَّ، لكني أجرؤ، نعم هذه هي الكلمة، أجرؤ أن أفترض أنك وُجدت في ذلك اليوم نفسه، حين كنتُ على وشك أن ألتقي بكِ. حسبي أني قد رغبتُ في أن تكوني هنا تحت هذه الشجرة. حسبي أن..... هل تصغين لما أقول الآن"؟

- "الآن، نعم". أجابت، كما كان عليها أن تفعل، "يا كنزي الصغير المسكين، ما كان أشقى وحدته"!

- غير أن الكلمات لم تكن تحمل من اليقين ما يكفي. لقد استطاع أن يدرك أنها تمثِّل دور إدخال السرور إلى نفسه، عقلها، وعواطفها، وحتى جسدها، كانت في مكان آخر تسيطر عليها قوى عجز هو عن معرفتها.

- "كانت أشبه بفضاء فارغ، هنا إلى جواري، أشبه بعدمٍ خاوٍ، مكان كان عليك أن تملئيه. تخيّلت حجرَك، وتخيّلتنا جالسين هنا هكذا، وكنت أنت التي فهمتني. تحدثنا. أتعرفين ذلك؟ تحدّثت إليك، وكنت تردّين عليَّ، ولم أكن أخشى شيئاً لم تكن في حديثنا كذبة واحدة. كان كل واحد منا يقول للآخر بكل ما في نفسه. كنّا على وشك أن نذهب إلى المدينة وكنت أنت ستجيئين معي، كان قد تقرَّر قبلاً أنه ما إن تظهري حتى نغادر. وكان ذلك المكان حيث علينا أن ننجب أطفالنا، في المدينة".

- "أطفالنا؟" سألت بصوت أوشك أن يكون رنيناً آتياً من بعيد. مداعباً، أمسك بيدها التي كانت تحل جسدها. قرّبها إلى شفتيه، وهمس برقة شاعراً بأنفاسه تغلغلها مرتدة عن ذلك الجسد الدافئ:

- "نعم"، قال محدِّثاً يدها، "أطفالنا في المدينة. وليس هنا. لقد فكّرت بكل ذلك سلفاً. لا يمكنكِ أن تتخيلي كيف كنتُ أعدُّ كل فعل من أفعالنا بشكل دقيق. حتى ما نفعله في يومنا هذا".

كان يُؤملُ أن يرضي فضولها الشبيه بفضول القطة، وأن يجعلها تردِّد الكلمات بعفوية بريئة. ما نفعله اليوم؟ وما الذي تفكِّر به عما نفعله اليوم، أيها الوغد، الداعر، أنت، أيها الطفل الغرُّ؟ بيد أن يدها انسلت من شفتيه فحسب، وارتدت إلى شعره تداعبه، وكان ذلك هو كل ما يدل على أنها كانت موجودة هناك. أغمض عينيه وترك كسر الضوء ترتشفهما، وجمدا كلاهما يصيخان السمع لموسيقا النهر الذي لم يستطع أن يسيطر عليه. "حتى ما نفعله اليوم، كنا قد جئنا إلى هنا مرة ذات يوم، ولم نرجع ثانية بعدها. وها أنتِ ذي ترين أننا هنا، فعلاً. ليس هذا حلماً. وأنت لست مجرّد رؤيا. إن كل شيء يصير حقيقة مطابقة لما كان في الحلم، تماماً".

كان ينوي أن يواصل على ذلك المنوال إلا أنه شعر بجسد "سيسيليا" متصلّباً، فخذاها فقدا تلك النعومة الدافئة المتميزة. صارا مشدودَين، مرتعشَين، قاسيَين. حتى يدها صارت قاسية صارمة. عرف أنه كان بحاجة إلى أن يفتح عينيه. كل شيء فيها استحال بإزاء ما كان يقوله، وتجاه اللحظة الساحرة، إلى شرود اضطراري ممض. لكنه لم يرد أن يسلِّم بذلك. كان الخدر بالغ العذوبة ولما أبصر، أدرك أن شيئاً — من دون شك — لم يكن على ما يرام. شيء حدث لها، ولم يكن ذلك بادياً على وجهها فقط، أو على جسدها. كان أشبه بما يحدث في المرايا العجيبة التي تثني وتبدل هيئة الشخص وبنظرة قاسية مُعتمة كانت

عيناها لا تصدقان ما أبصرتاه، ما أبصرتاه في النهر، ما كانت هي نفسها تبصره مكرهة في النهر.

قالت مُتلعثمة:

- "انظر هِناك". خرج الصوت من حَنجَرتها هي، لكنه لم يكن صوتها، "هناك".

بعد إذن "القائد"، الحارس لم يعتبر ذلك ممكناً على الإطلاق، وحتى على المدى البعيد. الصراع – صغيراً كان أم كبيراً – بين "فيليب كاستوريا" والقوات المسلّحة، مستحيل.

كانت همومهما متطابقة تماماً. وجد نفسه مضطراً لأن يخبر "القائد" مقدَّماً أنه لا يعد نفسه خادماً لسيدين. وذكَّره أنه – على العكس – "فيليب كاستوريا" نفسه هو الذي قدّم خدماته للقائد "جيورجياكس" في بداية النضال ضد المتمردين، وأنه لم تُوضع شروط بعدُ ليحدِّد تلك الخدمات، وأنه قد برهن على استمراره في تلك الحالة، حتى عندما تبدَّلت القيادة.

نهض "القائد" وتمطى بكامل جسده، ثم ارتخت عضلاته المشدودة في كرسيه الوثير. ظلت ذبابتان تدوران برتابة حول القنديل. وعلى مسافة ما، كانت الكلاب تنبح في الظلمة.

- "اسمع، يا "عمانويل"، من الطبيعي أن الجيش يودُّ أن يعرف ما صنعت حماسة جنوده. أنا لا أعني أن عليك أن تحدِّد اختياراً ما. فلعلكَ لن تُواجه بمشكلة كهذه. لكنْ، من يدري، فجأةً ويتغير كل شيء. فمن جهتي أنا، لا أعلم ما الذي يخطِّطه "كاستوريا" بشأنك بعد أن تنتهي هذه الحرب. ربما كانت فكرة حسنة أن تخبره بأنك تتطلّع إلى أن تأتي معنا إلى المدينة. هل تحدثتم عن ذلك؟ لم يحدث أن طرقوا هذا الموضوع. كان المأمور يعرف أن وظيفته دائماً موجودة، دائماً متاحة، وأن السيد "كاستوريا" دائماً في حاجة إلى خدمات الرجال أمثاله. وإضافة

إلى هذا، إن لم يضايق ذلك "القائد"، السيد، فإن المأمور قد وجد هذه المسألة منغّصة إلى حد بعيد. فهو لم يكن يحبِّذ أن يستبق التوقعات في مسألة كهذه. فهل مازالت الفرصة سانحة أمامه ليواصل تقريره؟

- "هناك"، ردّد الصوت الذي لم يكن صوتها. "هناك، هناك".

استشعر بداية الرعب لكنه حاول أن يكبحه بوساطة النظر في كل اتجاه، متفحِّصاً، ومتطلّعاً في الأفق. انحنى مستحياً وهو يرتعش، وأمسك بمسدسه.

- "ماذا؟" سأل بغضب، "أين هي"؟

إلا أنها كانت قد جرت صوب النهر، سقطت بين الصخور، وانزلقت مخبولة، تحاول بيديها أن تتشبَّث بأي شيء، ثم أخذت تحبو على أربع، وبدت كشخص مجنون، شخص أصابه الشلل، حيوان مذعور.

- "سيسيليا"، "سيسيليا"، انتظري!

ولم تُعِره أي اهتمام.

ألقى نظرة عجلى على الطريق، واستدار إلى بقعة في النهر هائجة.

لم يكن هنالك من شيء، لا أحد، لا شيء مطلقاً. «سيسيليا»!

عندئذ، رآها هو أيضاً. كانت أشبه شيء بهيئة مضموم، غامض، تقريباً إنسان في الماء. حجم ذلك الشيء بين الأشجار الساقطة في الضفة الأخرى، تحرّك حول نهاية الجذع المصلّم[1]، بطريقة بطيئة، ثقيلة، قاتمة.

كانت "سيسيليا" تتقدّم ناحية ضفة النهر كما لو أنها تعتزم أن تلقي بنفسها في مجراه.

- "لا"! صاح مرة ثانية، "انتظري"!

---

1 - المصلّم: المقطوع والمستأصَل.

ولما بدت وكأنها لم تكن تسمع شيئاً، ولما بدت وكأنها ما عادت قادرة على التحكم بنفسها، فقد عبأً مسدسه وأطلق في الهواء.

ردَّدت التلال صدى الطلقة بجفاف. صدمته أصوات العصافير المذعورة التي طارت فجأة من مجاثمها، كأن أحداً قد استنفرها للنزال، فأخذت تزعق وتتصارع في الهواء في اضطراب مفاجئ غاضب.

إلا أن الطلقة حققت غرضها. وقفت جامدة من دون حراك كتمثال وضع على الشاطئ الصخري.

- "لا تتحركي! إن ذلك يمكن أن يكون شَرَكاً، كميناً".

وأخذ يتقدّم إلى الأمام ببطء شديد ومسدسه في يده، وعيناه تمسحان بثبات ظلال الأحراش وثنايا الأحجار الحادة علّ أحداً يختبئ خلفها، ولا أحد، ولما وصل إليها، تبين كم كانت شاحبة، وهي تتعرّق عرقاً بارداً، إشفاقاً على ذلك الشيء الذي كان يطفو سابحاً في ضفة النهر الأخرى.

- "إنه هو". قالت، "إنه هو. أنا أعرف أنه قد جاء أنا أعرف. لقد قلت لـ"ماما". إنه هو".

- "ابقي هنا. لا تتحرّكي. مفهوم؟"

بقيت تتمتم، إنه هو، إنه هو، بصوت خفيض لا يكاد يُسمع، كان خدّاها ممتقعين، إنه هو، إنه هو، أنين حيوان جريح.

قرر "عمانويل" أن يقطع بسرعة المسافة الفاصلة بينه وبين ضفة حافة النهر الهائجة. إنه لأمر سيئ. ربما يبدو رجلاً ميتاً "أم إنها امرأة، أيمكن أن تكون امرأة بذلك الذي يشبه الشعر الطويل المرتعش، ذلك السواد المتماوج؟" كان الرجل منتوعاً في الماء وفروع الشجر المدلاّة، وبعض الأوراق التي لم تسقط بعد أو ظلّت تنمو بعناد مخفية هوية الشكل الذي كانت الأمواج تستثيره، ترفعه، تغرقه، وتباعد بينه وبين

الصخور، وتخفيه خلف أوراق النبات. وهناك في أعلى النهر كانت مرآة الماء تعكس وهج الشمس الباهت.

ظلّل "عمانويل" عينيه، وحاول أن يجد مكاناً يستطيعان العبور منه.

تذكَّر بضعة صخور مستديرة ومسطحة في أسفل النهر. ها هي ذي هناك. يمكن أن تقوم مقام الجسر. قال برقةٍ وهو يحاول أن يبتسم:

- "تعالي، يا "سيسيليا". هل ترغبين في أن تأتي معي؟ هل نذهب ونرى ما هو؟"

أطاعت. تمثال كانت. عيناها فقط كان فيهما شيء من الحياة.

عيناها القلقتان، المنهكتان، الدامعتان.

- "أبعد ذلك". كان هذا هو كل ما استطاعت أن تطلبه منه، مشيرة بوهن إلى المسدس من دون أن تدير وجهها نحوه، بل ركّزت كل همها بتلك الحزمة التي راحت تغرق شيئاً فشيئاً في التيار.

هاهو الآن حر اليدين يحاول أن يضفي على صوته شيئاً من الثقة واليقين.

- "ليس شيئاً. إن هذا النهر مملوء جداً بالقمامة".

- "إنه هو. إنه هو". ردَّدت عينا "سيلينا" الطافيتان السوداوان، أما هي فلم تتفوَّه بكلمة. قبَّلت اليد التي مدّها إليها. لاحظ أن أصابعها كانت بلا حياة، ولم تستجب هي لشيء من ضغط يده.

انتظر "القائد" برهة أخرى يتفحَّص هيئة الحارس الواقف أمام مكتبه، ثم غمز عدة مرات، وكأنه يتنفس الهواء عبر عينيه.

- "إذن، فأنتَ قد سلَّمت رسالة دعوتي إلى "كاستوريا"؟

كان قد مارس شيئاً من حريته فشمل بدعوته "سيباستيان" أخا "السيد كاستوريا" إذ إنه مادام قد علم بحضوره، بزيارته، فهو من دون شك يرغب في أن ينضم إلى حفل العشاء الذي يُقام على شرف الكولونيل "فون سباند".

- "حسناً، والأخ، هل سيأتي"؟

لسوء الحظ، إن عليه أن يعود إلى العاصمة خلال أيام معدودة، ولذا فلن يكون حاضراً في المنطقة من الأسبوع القادم. ومع هذا، فإنه يبعث بشكره وتقديره.

- "لكنَّ كاستوريا آت"؟

- "نعم، بطبيعة الحال، على الرغم من أنه لم يكن راضياً عما سماه مسألة النهر. إنه يريد المزيد من التفاصيل. إلى متى ستستمر هذه؟ هذه كانت كلماته".

- "أعد عليّ كلماته بالضبط".

- "إلىَ متى ستستمر هذه"؟ هكذا تحدّث عنها السيد "كاستوريا".

- "وأضاف: أعتقد أن لقائدك يداً رقيقة. اللعنة على كل ذلك".

- "قال هكذا، بهذه الكلمات؟"

- "بعد إذنك، يا سيدي، هذا ما قاله".

- "وكيف رددتَ عليه؟"

أشار إلى أن صبر "القائد" على وشك النفاد، وأن "القائد" يتصرّف وفقاً للأوامر بألا يثير المواجهة مع السكان، وأخيراً، إن "القائد" قد ذكر للملازم بأن الأمر على وشك أن يُحسَم، بطريقة أو بأخرى، قبل أن يصل الكولونيل الألماني.

- "هذا هو ما قلتُه له؟"

- "نعم، يا سيدي، هذا هو ما قاله له".

أثناء عبورهما السريع، شعر بأنها كانت تهدأ شيئاً فشيئاً.

كان عليهما أن يكونا جد منتبهين لمواضع أقدامهما، مهتمين بكل صخرة، وأن يظلا متيقظَيّن إزاء النهر القوي، وهما يفكران بالصخرة التالية، والتي تليها، وأن يحرصا على ألا يقعا، كان عليهما أن يشعرا بقوة الأعصاب والعضلات التي سترسو بهما في كل جزيرة صغيرة طوال

الطريق. كان عليهما أن يعملا معاً بأيديهما وسواعدهما وأكتافهما وارتعاشات جسديهما، كانت أحذيتهما تطرطش برغوة الماء.

كان عليهما أن يتجنَّبا النظر إلى أعلى النهر، وإلى الأشجار، وإلى ذلك الشيء الذي يظهر ويغيب في الماء، محاولين دائماً أن يحتفظا بتوازنهما.

عندما وصلا إلى الضفة الأخرى، تركا لأعينهما التي كانت تنظر إلى الأسفل فقط، أن تنظر إلى أعلى لتبحث عن الطريق التي عليها الآن أن تجده. وفي نهاية المطاف أدركت أقدامهما أين كانا يقفان، قريباً من الجذور العفنة للشجرتين الضخمتين، عندئذ رفع بصره، ثم أعاده فجأة إلى النهر. تناول فرعاً وشرع يثنيه على عجل حتى صار عصا طويلة معقوفة في يده.

- "لا تتحرّكي".

ظلّت ترقُبُه يتقدّم على أحد الجذوع بحذر شديد نحو طرف الجذع.

وحين صار قريباً من نهايته المستدقة أبصرته يتوقف، ممسكاً بأحد الفروع، محاولاً أن يحتفظ بتوازنه ضد التيار. ودّت لو تقول له أن يكون حذراً، لكنَّ كلماتها لم تسمعها. كانت تشعر أن فمها مملوء بالوحل. ثم رأته يستخدم العصا كمجرفة، وكأنه ينخس ناراً. ظلّ الشكل يصرُّ على التقلّب في كل مرة ظهراً لبطن كلما لامسته العصا. رغبت في أن تغلق عينيها لولا أن الهواء أو الضوء أو النهر قد جعلهما مفتوحتين على اتساعهما. شيء ما أجبرها على التركيز على "عمانويل" وهو على جذع الشجرة الساقط، على تيار النهر الذي يخفق وكأنه يسابق خفقان قلبها إلى أسفل الوادي، وعلى الجسد الذي ينقلب لكل وخزة قاسية من العصا.

التفت "عمانويل":

- "انظري"، صاح محاولاً أن يفوق صياحه ضجيج النهر.

واستطاعت هي أن تستبين ابتسامة زائفة ارتسمت على وجهه.

- "انظري. إنه لا شيء". وعند موضع العصا، كانت تتدلّى مزقة قديمة من القماش يتلاعب بها الماء، مزقة كانت ذات مرة لباساً، أو ستارة أو كفناً، أما الآن فلم تعد سوى مزق منتنة مهترئة.

- "من هو؟" سألت غير راغبة في أن تفهم.

- "لا أحد. إنه هو لا أحد. فقط كتلة من البراز. خرقة براز".

ورمى بالعصا إلى الشاطئ، فوقعت عند قدمَي "سيسيليا". وتراجعت هي إلى الوراء محاولة أن تَحدُسُ نوع تلك القطرات المتسابقة من ذلك الفرع الميت الصدئ.

- "ماذا قلتُ لك؟" عاد "عمانويل" سريعاً عبر الجذع، متحدّثاً من دون توقف، بزهو. "إنها فقط أعصابك. لقد تسممنا بالعديد من الحكايات. ألم أقل لك؟ ألم أقل لك: إن هذا النهر مملوء بالنفايات؟"

اقترب منها ورفع العصا ثانيةً وجعل يؤرجحها في الهواء مرشرشاً الوحل عليهما معاً. كان يؤرجحها وكأن في طرفها إكليلاً أو تذكاراً لصيد أو حرب، أو كأنما علّق فيها رأساً لعدو.

- "ألم أقل لك بأن كل هذا هراء؟ ألم أقل لك؟"

وانتظر لعلها تعلّق بشيء، ثم أضاف: "قائدي يقول دائماً: إن علينا أن نهتم بالأحياء. وأن الموتى يهتمون بأنفسهم. لذلك دعينا من شغل أنفسنا بحكايات العجائز.

حكايات العجائز الداعرات اللائي لا يعرفن أي شيء عن أي شيء. العجائز الجاهلات".

كان تعقيبها الوحيد هو أنها أمسكت بذراعه وأنزلته. ثم أمسكت بالعصا وجذبتها، ورمت بها إلى الأرض، حيث بقيت هناك. بعد ذلك سحبت يده إلى قلبها ووضعتها هناك. كان باستطاعته أن يحس بذلك الوجيب تحت جسدها الناعم. قفزت سمكة وأخذت تتلوّى على وشك أن تموت، أن تنفطر، أن تنفجر.

- "هل اعتقدت حقاً أنه... ك؟"
- "نعم. إنه هو. لقد اعتقدت أنه هو".

تحرّكت يده قليلاً إلى الأسفل، وأخذت تلامس برقة ثديها، كانت تلك رسالة رقيقة، متماوجة، موسيقية دافئة.

اقترب منها أكثر وشدها بيده الأخرى إلى صدره.

- "لكنه لم يكن هو".
- "لا، لم يكن هو".
- "هل ترغبين في أن نبقى هنا؟ أم تريدين أن نرجع إلى الضفة الأخرى؟"

ردت قائلة:

- "ما تراه يا حبيبي".
- "فلنعُد إلى هناك، إلى شجرتي. هيا".

ردت:

- "كما تريد".

عندئذ طلب أخو "كاستوريا" مزيداً من التفاصيل، فشعر أنه ملزم بأن يُطلعه على القصة كاملة، بما في ذلك قرار "صوفيا انجيلوس" الأخير بأن تخيّم قريباً من النهر، وما نجم عن ذلك من إثارة في المنطقة بكاملها. وفي ضوء ذلك، علّق أخوه قائلاً، إن هذه المسألة ينبغي أن تُحسم من خلال جولة جديدة بوساطة الرصاص، وأنه من العار أن هناك دائماً شخصاً ما يظن نفسه جد ذكي، وينصح الجيش بنصائح رديئة معطّلاً بذلك عمله الملائم. وعزم على أن يتحدث عند عودته إلى العاصمة مع أصدقاء له في الجيش، وينصحهم للمرة الأخيرة بأن الوقت قد حان لأن يفعلوا شيئاً. إذ، في أي مكان في العالَم تقف نساء جاهلات في وجه قوات الشعب المسلّحة للمراجعة؟

فما انتزعناه بالقوة يُردنَ الآن أن يأخذنَه منّا بالمفاوضات والكلام الفارغ عن الحل الوطني.

- "لماذا توقفت؟ استمر".

- "المشكلة هي أن السيدة "كاستوريا" تدخّلت تماماً في تلك اللحظة".

- "بياتريس"؟

- "نعم، يا سيدي، هي فعلاً. إنها عادة لا تشارك، غير أنها كانت مستثارة بشكل ملحوظ منذ أن بدأ يحكي الحكاية، وفجأة تحدّثت. لقد أرادت أن تقول: إنها تفهم أولئك النساء البائسات، وإن الوقت قد حان فعلاً لأن يرجع أزواجهن إليهن إن كان الجيش يحتجزهن أو يعرف مكانهم، وإضافة إلى ذلك، فإنها تعتقد أن "القائد" قد تصرّف بحصافة بالغة، وحذر زائد وحتى بحكمة، إن كان هذا الثناء لا يحرج "القائد"، إلا أنها، على حد ما تسعفه فيه الذاكرة، قد عبَّرت هكذا. وأن الأفضل أن يعتمد على الجنود الذين يضمرون تعاطفاً حقيقياً، والذين فعلوا كل ما بوسعهم ليوجدوا حلولاً للمشكلات، لا تعتمد على العنف.

إنها تأمل أن كل شيء سينتهي بسلام، لأن دماً غزيراً قد سُفك، وقد بُولغ في الانتقام، وإنها كانت مرهقة وخائفة، وإن أخا زوجها سيفعل خيراً لو يحضّ أصدقاءه على ألا يعمدوا إلى استعمال القوة. لقد كانت تود أن تذهب هي و"فيليب" للعيش في الريف، بينما كان هو سعيداً في المدينة، ولم يَظهر أنه يعاني من العواقب.

- "وماذا قال حموها بهذا الخصوص؟"

- "لا شيء، يا سيدي، لأن السيد "كاستوريا" أخذ المبادرة.

لقد ردّ على زوجه بالقول بأنها لا تفقه شيئاً في الشؤون السياسية، وإنه لا ينبغي لها أن تتدخل، وإن عليها أن تدع هذه الأمور للرجال. ثم حاول بعد ذلك أن يلاطفها كي تفصح عما كانت تخشاه".

- "وهي؟"

- "قالت، بعد قليل من التملّق: إنها سمعت إشاعات، إنها تعرف عن جثث أخذت في الظهور في كل مكان، حتى في حقولهم هم، وفي بساتين

فاكهتهم، تماماً في ممتلكاتهم تظهر جثث، مشنوقة ربما، رجال موتى، وإن أولئك الرجال المقطعي الأوصال أخذوا يجوبون المنطقة في الليل، كل واحد منتن وقذر ولا وجه له، وما من شيء يمكنه إيقافهم، لأنه ما من شيء يستطيع إيقاف الموتى، وإن الخدم ليس لهم من همس حول أي شيء غير ذلك، وكذلك العاملون بالمزرعة، وحتى الحراس. وإنها قد استيقظت ذات ليلة مبتلّة بالعرق ونزلت ووجدت الأبواب مفتوحة، أبواب المنزل، شخص ما ترك الأبواب مفتوحة لهذا الغرض بالضبط، أحد ما.

بعد إذن "القائد"، كان أمر يثير الرثاء أن ترى السيدة "كاستوريا" جد مذعورة، ذلك لأنها كانت دائماً مثالاً للسكينة والهدوء، امرأة لطيفة حقاً، لقد حظي بفرصة مقابلتها على العشاء".

– "النساء لطيفات، هذا حق. لطيفات، ولا ينسين. لكنهن لا يستطعن أن يكنّ جنوداً مثاليين، أليس كذلك؟"

– "لا، القائد مصيب تماماً ولا ريب. كلهن، كلهن يتركن لأنفسهن العنان للوقوع تحت تأثير سخافات كهذه".

– "ماذا حدث بعدئذ؟"

– "تدخل "فيليب كاستوريا" من جديد، أولاً كيما يهدّئ من روعها، ثم ليقرَّ بأن الوضع قد صار مستحيلاً، وأنه لمن الخير أن زيارة الكولونيل "فون سباند" ستعيد الأمور إلى نصابها. وأن ذلك أمر حسن جداً، جداً. وأنه لمن المؤسف حقاً أن نعترف بأنه لابد للألمان أن يجبروا جنودنا نحن — الذين لم يكن بينهم واحد أدنى منزلة من ابن الجنرال "كونستانتوبولس"، هذه كانت كلمات "فيليب كاستوريا"، لذا فإن "القائد" سيفهمها هكذا. جنودنا نحن، قال هو، كيما يكونوا أكثر تعاوناً وحماساً. أم إن "القائد" يفضل أنه، "كاستوريا" ورجاله. عليهم أن يفرضوا قليلاً من النظام؟ وما لم يفعلوا فإن الكولونيل الأجنبي سيفعل ما ينبغي له أن يفعله بطريقته هو. إلا أن الأفضل لجيشنا أن يتولّى هو شؤوننا الداخلية، مشكلاتنا نحن، لقد آن الأوان".

- "وهل قال أي شيء غير ذلك؟"

- "نعم، يا سيدي، إن علينا أن نهتم بالشغل، وأضاف: إن كانوا يقدرون. هكذا قال".

- "إن كانوا يقدرون؟ قال هذا؟"

- "هذا، أو شيء مثله. من العسير أن أردِّد كلماته كلمة كلمة. بيد أن ذلك ما عناه".

- "وأنتَ، ماذا قلتَ له حينها؟"

- "لم يقل شيئاً. إنه، حتى، لم يدر ما الخطط الفورية التي كانت لدى الضابط".

- "ما سنفعله، ستراه في الحال. وتلك القحبة العجوز، ستراها أيضاً".

- "أنا لا أريد له أن يُولَد هنا". قال "عمانويل"، "ليس هنا".

لم تجب هي. تركت أحد الأحجار الصغيرة، التي كانت في يدها، تسقط وبقيت تحدِّق فيها وهي تتدحرج، ثم التقطتها ثانية لتتركها، وتلتقطها من جديد. وظلّت تكرر هذه العملية، بينما كان هو يفكر في لعبتها. وفجأة، اقترب ومد يده والتقط الحصاة. قالت:

- "أعطني حصاتي". وأخذت تغني "إنها ملكي. أعطني إياها".

تردَّد "عمانويل". فتح أصابعه بطريقة مشوِّقة، فاستطاعا معاً أن يريا زخرفتها، الأبيض والأسود اللمّاع، ثم أغلق قبضته.

- "من قال: إنها حصاتكِ؟ أثبتي لي ذلك".

قالت بعناد:

- "إنها حصاتي. أنتَ أقوى، لكنها حصاتي. لقد كنت ألعب بها".

التمعت عيناه، وقال:

- "تعالي وخذيها مني، إذن. أو أعطني شيئاً ما مقابلها. لنرَ ماذا عساك تعطينني؟"

قفزت وحاولت أن تمسك يده المرفوعة، فأبعدها ببساطة.

- "ليس لي أن أعطيكَ شيئاً، لكنْ، فليكن، تجنباً للمشاكل، وحرصاً على الود، سأهبكَ قبلة. لا، خمس قُبَل. واحدة لكل أصبع. لا، لا، ست، واحدة لكل أصبع، وواحدة لراحتكَ ويدكَ".

- "إن هذه حصاة جد ثمينة. جد سحرية. إنها تبعد عنك كل متاعبكِ مجتمعة. وهي، فوق ذلك، حصاة الحقيقة".

أمسَكت بذراعه، وببراعة راحت تزحف بإحدى يديه نحو قبضته متقدّمة كأم أربعة وأربعين.

- "حصاة الحقيقة؟"

- "نعم، من يمسكها لابد أن يقول الحقيقة، إذ لا يمكنه إلا أن يفعل ذلك كلما سأله أحد سؤالاً. ويزداد الأمر، إذا ما كان الشخص امرأة".

- "هذا غير صحيح. إنه كذب".

وصلت يدها إلى أصابعه وأخذت تحاول فكها. ولما تمكَّنت من تحرير إحداها انتقلت إلى الأخرى. لكنه استغل انهماكها الشبيه بانهماك الطفل، فأغلق أصبعه الأولى.

وكشّر بأنيابه عن ابتسامة متظاهراً بالبراءة.

- "سوف أعطيك إياها، أنتِ عارفَة. ولكنْ حين تصير بحوزتك، فإن عليك أن تحرصي كلَ الحرص عَليها".

- "سأحرص عليها أفضل منكَ. تلك الحصاة الصغيرة تود أن تتدحرج. إنها تريد أن تُلقى وأن تُلتقط ثانية. إنها تبغي يداً أرق مثل يدي. انظر ما أجملها، لا يداً قبيحة كيدكَ التي ستؤذيها وتبقيها حبيسة طوال اليوم، لا شمس ولا سحالي صغيرة لطيفة".

- "عليك أن تجيبي عن سؤال واحد، هذا كل ما في الأمر، حين أعيدها إليك، حسناً".

- "حسناً، إن استطعتُ".

- "سوف أهمس به إليكِ هكذا. ببطء تام، في أذنك، حيث ما من أحد يستطيع أن يسمعه سواكِ أنتِ والحصاة الصغيرة وأنا".

- "هاتها إلي".
- "تعدينني؟"
- "بالطبع". فجأة صار صوتها جاداً، "ثم إنني لا أملك أسراراً. ما من شيء عني يخفى عليك".
- "هاك الحصاة، إذاً".

أشرق وجهها. أخذت الحصاة، وجعلت تصفيها بأنفاسها وتمسكها بساعدها كي تشعر بنعومتها اللامعة.

- "إنها حصاتي. إنها حصاتي، ولن أفرّط بها ثانية أبداً".

دنا منها وقال:

- "سوف آخذ القبلات الست فيما بعد. أما الآن، فإلى السؤال".

أمالت عنقها حتى صار رأسها قريباً من فم "عمانويل".

- "هل الحصاة معك؟" سألها هامساً بصوت سمعته بالكاد من خلال ضجيج النهر المتدفق بين الصخور. هزّت رأسها، وفتحت قبضتها الصغيرة التي كانت قد انغلقت على الكنز الصغير.

- "عليك، إذن، أن تخبريني بالحقيقة".

هزت رأسها ثانية. وشعر هو كيف لان جسدها، وذاب في يديه، "تذكّري، أن هذه الحصاة هي حصاة الحقيقة".

أومأت بعينيها. "أخبريني إذاً"، وخفض صوته حتى لا يكاد يسمع، "هل أنت حامل"؟

- "وهذا هو كل شيء؟ ألم تنسَ شيئاً؟"

عند ذلك أراد المأمور أن ينتهز الفرصة ليشكر عطف "القائد" لسماحه له بأن يأخذ معه صديقه في رحلته تلك.

كانت تلك لفتة كريمة تستحق الثناء، وهو لن ينساها له، لم يكن في ذلك جرأة منه إذ يقول هكذا.

- "لا بأس في ذلك".

أبصره "القائد" يتجه صوب الباب فأخفى ابتسامة غامضة.

- "آه، نعم. شيء واحد فقط".

- "نعم، سيدي القائد، مُرْني".

- "هل أخبرت "كاستوريا" بأنني عرضتُ عليكَ المساعدة للانتقال إلى المدينة"؟

فليغفر له "القائد"، فهو لم يفهم السؤال.

- "هل أخبرت "كاستوريا" أنكَ عمّا قريب ستعود معي إلى العاصمة؟ هل أخبرتها بذلك"؟

- "بعد إذنك، لم يبدُ له ملائماً أن يناقش مع السيد "كاستوريا" أموره الشخصية مع قواده العسكريين".

وفي الصمت، كان بالإمكان سماع نباح الكلاب، الكلاب التي في التلال تنبح على القمر المتواري خلف السحب. انتهز القائد فرصة الصمت ليلاحظ الحارس واقفاً هناك إلى جوار الباب. وانتظر كي تمر برهة أخرى. أخذ ينقر بأصابعه على المكتب، ثم وضع كلتا يديه خلف عنقه.

- "إذن، فأنت ترى أنها كانت زيارة مُقنعة، بكاملها"؟

- "نعم، سيدي. إنه يعتقد أن الزيارة قد حققت كل أهدافها المرجوة. وهو باستطاعته أن يؤكّد، ما دام قد سُئِل، أن الرحلة – من دون شك – كانت أكثر من مقنعة. أكثر بكثير".

أسقطت الحصاة.

- "قالت"، ومع أن جسدها لم يتغير، فإن صوتها قد لفظ الكلمات وكأنه قد بصقها بصقاً: "خنزيرة خنزيرة".

- "إنك لم تجيبي عن السؤال".

- "الجواب، لا". ثم ابتعدتْ عنه، والتفتت إلى الوراء برأسها تتطلّع إليه بغضب. "لا. ولا. ولا. أنا لستُ حاملاً. أنا لا أتوقع أي طفل. لا منك ولا من أي أحد غيرك. هل أنت سعيد الآن؟ الآن، هل أنت مقتنع؟ تريد الآن أن تصادق امرأة أخرى؟ هل تريد ذلك؟ أليس هذا هو ما تبغيه؟"

- "أنت بنت ساذجة. أنت غيورة. كان ذلك مزاحاً، هذا كل ما في الأمر. لا شَيء أكثر من مزاح".

- "خنزير، خنزير. طفلكَ ليس مزحة".

حاول أن يقترب منها، لكنها تراجعت عنه. توقفت عند حافة ظل الشجرة.

- "لستُ أدري ما حدث لكِ، يا حبيبتي. لقد تصرّفتِ بطريقة غريبة. أعتقد أن ذلك هو السبب".

- "حسناً، ذلك لم يكن السبب. هل أنت سعيد الآن"؟

- "نعم جد سعيد. أنا لا أريده أن يُولد هنا".

- "ألم يكن باستطاعتكَ أن تسألني بطريقة أخرى، مباشرة، وواثقة، كما كنّا نفعل على الدوام؟ أنتَ لم تعد تثق بي أبداً، أليس كذلك"؟

قال "عمانويل" بنبرة ثقيلة:

- "قلتُ لكِ إنني لا أريده أن يولد هنا. هذا كل ما في الأمر. لقد اعتقدتُ أن ذلكَ هو سبب تصرفكِ الغريب".

- "ليس في تصرفي أي غرابة".

نهض، وأخذ ينفض سرواله بيده.

- "حسناً. أنت على صواب. ليس في تصرفكِ أي غرابة. لكنْ، ما ذنبك إذاً؟ هلا قلتَ لي بالله ماذا يدور برأسكِ"؟

- "لا شيء برأسي"، ردت "سيسيليا"، وهي تحدق في النهر المتدفق نحو الوادي الذي ولدت فيه:

- "لا شيء، بالتأكيد".

ولم تعد لالتقاط الحصاة.

-١٠-

[لقد أشار أبي هنا إلى وجود جزء من المخطوطة الأصلية، تحت الرقم المذكور. يبدو، في الحقيقة، وجود فجوة في نص الرواية ها هنا، ويستحسن أن يُخبَر القارئ عن هذا النقص. وليس هنالك من سبيل لمعرفة ما حدث، أو خطط لهذا الفصل].

الفصل السابع

-١١-

قبل أن ينزعوا الرباط، نعم قبل ذلك، كان "ألكسيس" يدري سلفاً أين هو، كان يتذكَّر هذا المكان.

أنت تعرف هاتيك السلالم حيث تعثرتَ، هذا الهواء العطن الذي يفوح برائحة البراز، ووَقْع الخطوات الفظة على حجر ذلك المرمر الذي لا ينتهي. نزعوا الرباط، فحاولت عيناك أن تألفا ما لابد أن يكون ظلمة، حاولتا أن تتبينا الزنزانة التي ستريان، الزنزانة التي سبق لهما أن رأتاها.

صاح صوت آمر:

- "النور، اللعنة".

امتدّت يدٌ ما وضغطت زر المصباح، فغمر النور المكان. أعماكَ الوهج المفاجئ، وترك شبكتين بيضاوين موجعتين. انطبقت جفناكَ تلقائياً.

وتركز اهتمامك على شيء آخر، على الألم في كتفيكَ الممزَّقة، وبصبر انتظرت دوائر اللون النارية أن تخمد.

وثانية، أخذ الصوت والجنود يندفعون بغتة من الخلف. كانت حركة يديكَ الآلية دونما جدوى. ليس باستطاعتك أن تحمي نفسكَ. إنهما موثَّقتان خلفكَ. والكتف المُوجَعة، تدق بعنف بشيء ما، شيء صلب، طويل. قضبان، إنها القضبان. وهاهو اللهيب الآن يبدأ، كتفك شرعت تحترق.

- "طيب، يا امرأة، لترينا إن كان لسانك سيرتخي قليلاً ليقول: وداعاً لحفيدك. لقد جئنا به إلى هنا".

في الخلف، حيث تلتقي القضبان، وتتكئ مستريحاً عليها، استطعتَ أن تسمع حركات مُنهَكة تقترب منك. قدَّرت أنها هي. حينها، جاءكَ صوت جدتكَ، مبحوحاً، حزيناً، قلقاً:

- "الصبي، أيها القائد؟"

- "الصبي، أي صبي؟ إنه لا يبدو لي صبياً. إنه كبير بما فيه الكفاية ليعرف كيف يذهب للاختفاء. لقد انطلقنا للبحث عنه منذ أسبوع، أسبوع كامل ولم نتمكن من العثور على هذا... الصبي إلا الآن فقط".

ها أنت تشعر بيد جدتكَ تلامس شعركَ أولاً، فخذكَ، ثم تنزل إلى عنقكَ، كما لو أنها هي، ذات العينين الغائرتين، المرأة العجوز العمياء، تثبت ملامحك وتشد أزرها، تلك اليد دافئة وجاسئة[1] بشكل لافت، وتوقفت هناك، تدلك برفق عضلات عنقكَ.

- "أي نفع يمكن أن يعود به عليكَ صبي، أيها القائد؟"

من الصعب أن تتصوّر ابتسامة "القائد"، فمه الممطوط، أسنانه التي تظهر بالكاد مع كل جملة، وشفته العليا الملتوية:

- "أي نفع يعود علينا منه؟ باستطاعته أن يقدّم الكثير لنا. النفع الأول هو أننا أنطقناك. إنه يوشك أن يكون معجزة، هذا.. الصبي.

إنها المرة الأولى التي استطعنا أن نستخرج منك جملة تامة، يا امرأة، وهذه بداية مبشّرة".

- "أنا أتكلم، إذاً، فهأنذا".

عادت يد جدتكَ إلى شعركَ، ثم نزلت إلى رقبتكَ، ثم إلى مؤخرة عنقكَ، بإيقاع مختلف، بعيد تماماً عن صوتها، متفحِّصة، مهتزة، مغمغمة، وبصوتها الملحاح الذي لا يكاد يصل إلى أذنيك، بل يحوم حولهما، وأخيراً تنزل يدها إلى أسفل رقبتكَ العارية.

---

1 - يابسة، صلبة، خشنة.

عيناك تنفتحان، على الرغم من الضوء المزعج المباشر الذي يسقط عليهما، شرعتا تميزان وجه جدتكَ الغريب، بعينيها الوضاءتَين القريبتَين السماويتَين المنعمتَين بالجوع، بينما كانت الزنزانة التي خلفها مظلمة.

- "أخبر جدتكَ لماذا سنرسلكَ إلى العاصمة – هيه – لقد حدثناكَ بذلك، هل نسيت"؟

ما الذي تهمسه "الجدة" بيدها؟ ماذا عساها تودع في أذنيكَ، تسريه إليكَ، لو أن كلماتها تستطيع أن تنفذ إليك عبر قناة سرية، كما يتسرب النسغ في جذع الشجرة، وكما ينفذ ماء الجدول خلال التجاويف، أي نصيحة تهمس بها؟ إنكَ تتكلم قليلاً، أيها الصغير، لذا بدأت بذلك. إنك تحتفظ لنفسك بنصف، بل بأكثر من نصف، ما تفكّر به.

وأن ذلك هو ما دفعها للتحدث مع "القائد". إنها ليست خائفة، لأن ما كانت تفكّر فيه أيها الصغير، كان أسوأ كثيراً. إن عليكَ ألا تنسى بأن هناك الكثير مما يعجزون عن فعله، أشياء كثيرة، وكثيرة: إحداها قراءة أفكارنا.

والخوف؟

وفجأة هبطت اليد مثل مخلب، يد "القائد"، تماماً على الكتف الممزَّقة المُوجَعة، ثم انتزعتكَ بشدة إلى الوراء. وقعتَ على الأرض أو كدتَ، بعد أن بذلتَ جهداً لتبقي قدميكَ ثابتتين. وبقيت يد جدتكَ حيث كانت، أشبه بطائر تجمَّد في الهواء، لم تتزحزح من مكانها سوى بضع بوصات. أدركت هي أن "القائد" يحدّق في يدها، يقبض عليها بعينيه الباردتين، فسحبتها ببطء، وأمسكت بأحد القضبان.

- "هل نسيتَ سريعاً ما يجيد تذكّره أولاد المدينة في مثل سنكَ؟ لقد شرحناه لكَ الآن ونسيته بهذه السرعة؟"

صار الضغط على كتفك لا يحتمل.

- "إنني أكلمكَ أيها الغلام. ألم يعلموكَ أبداً أن تجيب حين تُسأل"؟

ركزتَ اهتمامكَ كله على "الجدة" ولم تنبس بكلمة، هل باستطاعتها أن تعرف، أن تقول، ما أشد ما تؤلمكَ كتفكَ؟ قالت:

- "أيها القائد، ماذا تريدني أن أفعل؟"

- "أن تنصحي النسوة بأن يعدن إلى البيوت، أولئك النسوة اللائي من أسرتك، ومن الأسر الأخرى. إننا لا نريد أن نلجأ إلى القوة، يا "سيدة أنجيلوس". تستطيعين أن تثبتي حسن النية لجيش الوطن. غير أن صبرنا له حدود. بعد ست ساعات تماماً، في الفجر، سنزيحهن من هناك... بقوة السلاح إذا لزم الأمر. من الأفضل لهن أن يذهبن بأنفسهن، وحينها يمكن أن يُطلق سراح الولد. ولكِ عليَّ كلمة شرف".

لم يرتعش صوتها وهي تسأل:

- "وإذا لم؟"

- "هناك في الخارج ناقلتا جنود.. وضغطت إصبع القائد على كتفكَ، وكان هو يضغط على كل كلمة بشدة كما تضغط إصبعه على الجرح. إنه – حتى – لا يدري، أنكَ تستطيع أن تشعر بأصابعه تلك على طول كتفكَ ذاك وعرضه، كتفكَ التي حاولتَ أن تحركّها لعلكَ تقيها بعض الألم، تلك الأصابع الشبيهة بملقاط حديدي يقرض عظامك، وددتَ أن تطبق أسنانكَ وتعضَّ على ألمكَ بقوة وتتخيّل أن كتفكَ تخص شخصاً آخر، وأن كل ذلك يحدث لجسد شخص غيركَ، بعيد عنكَ، وآخذ في المزيد من الابتعاد. "إحداهما ستغادر صباح الغد إلى العاصمة. حفيدك سيكون فيها بكل تأكيد مثلما أن الله موجود. الأخرى ستغادر غداً، ويمكنكِ أن تحزري من سنضع فيها".

التصقت "الجدة" أكثر بالقضبان. لقد ترك ذلك انطباعاً في نفسه مؤدّاه أنها ستخرج من خلال الحديد، وأنها ستحوّل نفسها إلى شبح،

وتقفز على "القائد". تسمّر جسدها هناك، مخيفاً، قوياً كأن ريحاً عاتية هبّت فيه. إلا أن صوتها لم يكن كارهاً ولا عدوانياً.

- "أيها القائد، هل لك أطفال، أيها القائد"؟

- "أي سؤال هذا؟ أم إنك تهدِّدين أسرتي؟ هل تهددين أسرتي؟"

وصار صوت "الجدة" أكثر رقة، ومفعماً بالعاطفة. لقد مرّت سنين طويلة منذ أن اعتدتَ سماع صوتها وهو على هذه الشاكلة. رحتَ تفتش في ذاكرتكَ، إلا أنك لن تدري أبداً متى سمعتها تتحدّث هكذا من قبلُ. ربما وهي تضعكَ لتنام ذات ليلة عندما لم يكن "ماما" أو "بابا" موجودين، ربما من أجل أن تنام أنتَ و"فيديليا". ربما.

- "أنا لا أهدِّد أحداً، أيها القائد، مَنْ باستطاعتي أن أهدّد؟ كان بودّي أن أسألك خدمة باسم أطفالكَ. هذا كل ما في الأمر".

- "خدمة؟"

الآن، نعم، اختفى الغضب بصورة مبهمة من الصوت، والآن، نعم، الآن نعم يده تخلّت عن كتفكَ. فترة وجيزة، من المستحيل أن تصدّق أن الألم قد زال من كتفكَ، وأن الهياج فيه قد خفت، وهدأ. هبّ واقفاً، وتنحنح كي يصفي حنجرته، وأخذ ينسّق بدلته.

- "ما دمتِ قد ذكرت أطفالي، يا ست، وتوسلت بهم، فهاتِ، واسألي ما تريدين. آملَ أن أقدر على إرضائك".

- "أيها القائد، غداً ستأخذ "ألكسيس" بعيداً. إن ذلك أمر قد تقرَّر سلفاً. ليس بمقدوري أن أفعل شيئاً، يا سيدي، لتناديه".

بدأتَ تشعر بقلبكَ يدق، يدق بعنف وبإيقاع مجنون، وتحت جلدك يكمن الوجيب المكبوت الذي لابد أن يكون قلبكَ، الذي لابد أن كل واحد يسمعه الآن، الخفقان الذي لا يمكن أن يتوقف. ما من شيء تستطيع أن تفعله "الجدة" لكي تتفادى ما سيحدث غداً، لا شيء، لا شيء، لا شيء باستطاعتها أن تفعله، ها هي تعتقد أنه ما من سبيل لتفاديه.

- "إنكِ ترفضين أن تتعاوني معنا، إذاً. أترفضين"؟

لكنها واصلت وكأنها لم تُقاطَع:

- "لذا، فكل ما بوسعي أن أفعله، هو أن أطلب منكَ إمهالي بضع ساعات نستطيع فيها أن نودع بعضنا بعضاً. إن ذلك كثير، ولا يمكن أن أطلب منك أكثر منه، أيها القائد".

أخذ القائد يتنفس في غيظ كأنه يلهث، وكانت الكلمات تخرج من فمه وكأنها تغلي:

- "إذن، فأنتِ لن تذهبي إلى النهر؟ ولن تتعاوني؟"

- "هناك بعض الأمور التي أودّ أن أتحدّث بشأنها مع حفيدي، أيها القائد. ساعات قليلة، ليس هذا كثيراً عليكَ".

ساعات قليلة، يا جدة؟ أمور تتحدثين بشأنها؟ حتى سمعنا وقع تلك الخطوات، المرأة العجوز والصبي، وقع تلك الخطوات يتلاشى، تاركاً إياهما وحيدين، يتحدثان، لسوف تتطلّع إليها بتبجيل، لن تلمسها، لن تحتضنها، ببساطة ستمشيان في الليل الصامت معاً، مسلوبي اللب بسحر الصمت الشامل، مستمتعَين به وبالظلمة التي تلفهما وتحميهما، وغياب الجند، مستمتعَين حتى بصدى صدى وقع خطوات الأقدام، حتى يتلاشى الصدى، لسوف تتكلّم هي أولاً، هذا مؤكّد، قبل أن يقترب أحدهما من الآخر ويتلامسان، هي أولاً.

ألكسيس؟

نعم، يا جدة.

ألكسيس، إنها لم تكن تنوي العودة من العاصمة.

لسوف ترمش بجفنيك قليلاً، ثم تلي ذلك ابتسامة متوجِّسة، خاطفة، لا تستطيع أن تراها. ستتقدم أنت خطوة نحوها، تمتد ذراعاك، جدة، أنتِ....

لا، يا ألكسيس إنها تعرفه. إن ذلك الشيء عرفه بكل تأكيد. لكنها تعرف أيضاً بكل تأكيد أنه سيفعل.

لسوف تعود، يا ألكسيس.

ربما. يا جدة، وعندئذ يتعانقان. لم يكن هناك وقت ليضيعانه. في أي دقيقة الآن يستطيع "القائد" أن يرجع بسرعة ليأخذ منهما تلك الثواني الأخيرة المعدودة. الجنود في أي دقيقة..

– "وأنتِ"؟ سأل القائد: ماذا ستعطيني مقابل هذه الخدمة؟ ما الذي سأجنيه منها؟"

– "قليل من السكينة، أيها القائد. هل يبدو لك ذلك قليلاً"؟

إنها تتحدّث إليه، لكنَّ هدوء صوتها هو لكَ أنتَ، كأنها تقدر أن تحميك، تهدئ وجيب قلبك، تجعل هذا الوجيب يزول إلى الأبد حيث يمكن لدقات قلبك أن تهدأ مثل خفقان جناحين، حتى لا يدري الجنود خلفكَ من أين يجيئ الصوت، حتى إن القائد، حتى إنها هي وأنتَ، حتى إنه لا أحد في العالَم، حتى إنه لا أحد يمكنه أن يعلم بِمَ تفكّر وأنتَ لا تريد أن تظلّ تفكّر، ولن تفكّر.

– "شيء أكثر أهمية، يا "سيدة أنجيلوس"، أكثر واقعية. أنا أؤمن بما أستطيع إمساكه. طيب. إني أمنحكِ الصغير لبضع ساعات، فماذا ستهبينني؟"

– "أيها القائد، لقد أخذتني من النهر بالقوة. لم يعد باستطاعتي أن أكون مبعوثتكَ الآن. النساء الأخريات لن يتقبلنها تقبّلاً حسناً. وأنت تعرف ذلك سلفاً. ليس بوسعي أن أقدّم لك أي شيء آخر".

– "الحقيقة هي، أنك بالفعل، لا تكفّين عن إدهاشي. لقد أخبرني "جيورجياكس"، إلا أنني لم أصدّق أبداً. إن لديك قدرة لا تنفد على إدهاشي. قولي لي، هناك شيء أودُ أن أعرفه، بعيداً عن مسرّة الفضول.

ما الذي جنيته من كل هذا؟ هل جنيتِ أي شيء، شيء واحد إيجابي، من كل هذه الضجة؟ شيء واحد؟

نظرت "الجدة" إليكَ وهي تتحدّث، لا إليه، اتجهت النظرة إليكَ وبقيت، جد واضحة، جد صريحة، تلك الكلمات التي لم يكن ممكناً أن توجَّه إليكَ هي الكلمات الوحيدة التي كان بوسعها أن تقولها لكَ، ذريعة القائد، جزء من الجدران. كان هناك شيء أشبه بطيف ابتسامة على شفتَي جدتكَ، يطيل هذه الثواني، ويمنع الساعة من دقات الزمن، ذلك الزمن القصير البائس لتبقيا معاً.

- "رجالي، أيها القائد" قالت "الجدة" بمرارة ضاغطة كل مقطع من مقاطع كلماتها؛ "ويا أيها القائد. إن تركتني أذهب، هل تدري ما الذي سأفعله"؟ لم يجب. "سأفعل ما فعلته من جديد، أيها القائد. كل شيء. أنا لستُ نادمة على شيء".

جدة

نعم، يا ألكسيس،

هل تؤمن حقاً بما قلتُهُ للقائد؟

ماذا؟

أننا سنقوم بكل شيء كما ينبغي، أننا سنعيد الكرّة

ونفعل كل ما فعلناه إذا ما أُتيحت لنا الفرصة؟

ربما، يا ألكسيس، سيفعل خيراً لو نفَّذ رأيه،

هل يؤمن هو بأن ما فعلوه هو الصواب؟ قل الحقيقة،

هيا.

الحقيقة، لا تبشّر بخير، يا جدة.

كنتَ تشعر بالإرهاق من جسدها، الطريقة التي تريح بها جسدها مستندة إلى جسدكَ، إنها الآن هي التي تحتاج إليكَ. أنتَ على حق، لقد سمعتها تقول، أنت تفترض أنك ستسمعها تقول: لسوف تعترف بذلك،

وعندئذ ستتراجع خطوة إلى الوراء، وحينها ستفقد تينك اليدين الناحلتَينِ العظيمتَين الدافئتَين. لكنْ، أي خيار أمامنا، يا ألكسيس؟

لستُ أدري، يا جدة.

لكنه، سيدري ذات يوم، أليس كذلك؟

ذات يوم؟ نعم، يا جدة، آمل ذلك، يوماً ما.

- "إنها ليست نادمة على شيء". قال القائد هازّاً رأسه. نظر إليها الجنديين، ثم نظر إليكَ، باحثاً عن لغةٍ ما بينكما، عن علاقة ما. تبادل الجنديان فيما بينهما ابتسامات مكشّرة، حَذِرة. «إنها غير نادمة على شيء». كرّر القائد. "هذه البلدة ميئوس منها. لسوف يضطرون إلى إخلائها من السكان وإحلال سكان آخرين، أناس آخرين من خارجها، أناس بعقول أخرى. على هذا النحو، ليس هناك من سبيل، وليس هنالك من مكان لهم".

أشار القائد بصورة حاسمة، كأنه على وشك أن يغادر. استجاب الجنديان بتلقائية. شعرت بالحبل يُؤلم جسدك مثل ضربة سوط. وجدتكَ لا تحيد بعينيها عن وجهكَ.

- "لو أنني كنتُ زوجك، أيها القائد، أما كنتَ ترضى عنها، أما كنتَ ستطلب أن تفعل الشيء نفسه؟" زحفت الكلمات خارجة بسرعة، كانت "الجدة" توقف الزمن، كانت "الجدة" تنظر إليكَ.

أنزل القائد يده ببطء، فارتخى الحبل بالتدريج.

- "أنتِ تصرّين على إقحام عائلتي في هذا، ومع ذلك، فأنا سعيد أنك سألتِ. هل تدرين ما الذي سأقوله لزوجي؟ سأخبرها ألا تعرّض سلامة أطفالي للخطر لأي سبب كان في الدنيا. أو أحفادي، إن كان لي أحفاد. الحرب شغل الرجال، أليس كذلك، يا "ألكسيس"؟"

لم تقل أنتَ كلمة واحدة.

- "مكان المرأة هو البيت. أو السرير. هذان هما المكانان الخاصان بالنساء، يا سيدة. أوَليس كذلك، أيها الجنديان"؟

أصدر أحد الجنديين ضحكة مرتبكة، بينما هزّ الآخر رأسه موافقاً بحماس. لم يدريا ما يفعلان، ولا ما يقولان.

- حسناً، إذن، كفانا قذارة من هذه. هيا بنا نذهب". توتّر جسدكَ، متوقّعاً اللكمة على كتفكَ، وانشدّ الحبل حازّاً معصمك. ظلّت "الجدة" تنظر إليكَ، كما لو أنكَ صرتَ سلفاً في العربة، كما لو أنكَ صرتَ هناك فيها، وهم على وشك الانطلاق.

- "حضرة القائد!" حاولت جدتكَ للمرة الأخيرة، "ما نرجوه قليلٌ جداً. شيئان اثنان فقط. اعتنِ بهم، أيها القائد، وسيكون كل شيء كما يرام".

أعطى القائد إشارة فتوقف الجنديان، خلفكَ تماماً، تستطيع أن تلامس تلك الأيدي القريبة منكَ، بوصات قليلة، أشبه كثيراً بمخالب نسر يستعد للانقضاض.

- "لنسمع الشيء الأول".

- "أعد لنا أجساد رجالنا. هذا هو ما نطلبه أولاً".

ما الذي كان عساه أن يفعله، يا جدة؟ أولاً، هذا مستحيل، ولن يحدث أبداً. لقد كان خطأً أن تقول ذلك، يا بابا والآخرون موتى. ما كان له أن يقبل ذلك حتى يراه بأم عينيه، يا جدة، وحتى لو حدث ذلك، فإنه حينها ما كان ليصدقه، ما كان ليصدقه أبداً.

لقد صَدَقَ، إذن، أن ديمتريو كان حياً، أهذا صحيح، يا ألكسيس؟ سأحاول أن أعثر عليه في العاصمة، يا جدة. سأفتش عنه في كل مكان يأخذونني إليه. سأسأل عنه كل سجين.

مثل "سيرجي"؟ وإن أجابوا مثل "سيرجي"، أيها الطفل؟

أخطاء؟ يا جدة. مزيد من الأخطاء. ما كان العم "سيرجي" لِيُعامل هذه المعاملة. طالما أنها كانت تسأله عن الحقيقة، فلماذا تحكم على الناس بهذه الطريقة؟

ثم لاحظتَ في الظلمة كيف سوَّت الجدّة هيئتها حيث بدت قويةً، متماسكة، وشعرت بجسدها يصير صلباً من جديد، عمودها الفقري فقط هناك، جلدها ولحمها وأحشاؤها ودماغها نُزِعت عنها، تلاشت بعيداً، صعدت إلى الأعلى، أنتَ مجرّد طيف بهيج لا يمكن المساس به، أيتها الجدة. لو أننا أخذنا نغفر، يا "ألكسيس"، لو أننا شرعنا في التبرير، فسينتهي بنا الأمر إلى نسيان قوتنا، سننهار، ونفقد قدرتنا على التمييز بين الخطأ والصواب. في أوقات كهذه، هكذا تصير الأمور. وأنت ثابت مثقلها، يا جدة، في أوقات كهذه تماماً عليك أن تعرفي كيف تصفحين، كان عليكِ أن تمدي يد العون لأولئك الذين كانوا أضعف منكِ.

الصفح؟ كان الشيء الأهم هو النجاة. تلك الكلمة كانت مفتاح السر، النجاة، هل فهم؟ باستطاعتكِ الآن أن تدرك أن الليلة تنقضي، لقد سمعتَ الأصوات التي تقول إن الليلة تجف ببطء، وأن العصافير سرعان ما تحثُّ الشمس على الشروق، ينسرب الضوء خلال قضبان الزنزانة، الحرارة أخذت ترتفع ثانية، وقع أقدام الجنود في الممر، والعربة تنتظر في الخارج. لقد كان من الأفضل التحدث عن "بابا"، عن شباب الجدة، عن ثوب عرس "ماما"، وأفضل من ذلك، عن أول مرة رأت الجدة "ألكسندرا" ترقص تلك الرقصة، عن الكلمات الأولى التي لثغت بها "فيديليا". لو سألتها عن تلك الذكريات، التي هي كل ما تملكه الآن، عن ذلك الوقت الذي وجد الجد "ميشيل" نفسه وحيداً في حانة ملأى بسفاحي المُلاّك، ودخل صاحبه "ثيودورو" يولول في ابتهاج، كان عليكَ أن تدوّن كل نَفَس من أنفاس الذاكرة في حين ينقضي الليل. مهما يكن الذي

يفعلونه، فإنكَ لن تصير شديد القسوة حتى لا تدري كيف تصفح عن أولئك المتساقطين.

لعل ذلك، يا "ألكسيس"، هو ما كانت ترجوه.

- "إذن، هذا هو الشيء الأول. إنك لا تريدينهم أحياءً بعد الآن؟ فقط موتى؟"

أبصرت عضلات عنق القائد تتوتر، وأحست بقعقعة صاعدة من حَنجَرته ظلّ يكبتها ولم يطلق لها العنان، وفي بطنه، بل أسفل بطنه، أبصرت خلال تلك الأوردة شيئاً على شفير الانفجار، واصطكاك أسنانه يوحي بأنه أيضاً يعرف كيف يبلع غيظه، يختزنه، يغذيه، يطويه ويلفه بعفوية. لا يُظهره لأحد، العدو أيضاً يعرف كيف.

لكنَّ بابا كانَ حياً يا جدة، وإذا ما أعلنت وفاته، فربما يقتلونه فعلاً في مكان ما، في سجن ما. ما كان له أن ينَاقض ما تقوله أمام الناس، لأن هذه شؤون عائلية، وهي تدري أين ينبغي أن تُغسل الملابس المتسخة، لكنْ موتى، يا جدة، لا، هذه لا.

- "إنهم موتى، أيها القائد. لقد عرفنا بمجرّد أن تخطى ابني عتبات أبواب المدرسة".

- "والشيء الآخر"؟

لم يكن من السهل أن يرجع إلى البيت من حيث ذهب، أيها الطفل، لكنها كانت عازمة على أن تطلعه على بعض الأسرار، بعض الحيل، مثلها مثل ساحر، يا "ألكسيس" أشياء صغيرة يمكن أن تكون ذات جدوى. على حين غرة شعرتَ بنفسكَ طفلاً من جديد، أنتَ و"فيديليا"، وقد جعلكَ ذلك ترغب في أن تضع رأسك في حضن الجدة، هاهنا، والآن، غير أنك بقيت واقفاً، مثل رجل ناضج، واقفاً، تصيخ السمع لليل وهو يمضي. لسوف تنتظر. لم تكن الجدة يوماً هي تلك المرأة التي تحكي لك الحكايات. لم يكن لديها الوقت. هكذا قالت. دع الرجال

يهتمون بشؤون الأطفال، دعهم يشاركون في شيءٍ ما على الأقل، أما الآن، ولوهلة، فإن صوتها يلطِّف الظلمة، إنَّ باستطاعتكَ أن تتخيّل ليالي لم تخطر لكَ على بالٍ، حول الموقد أو في المطبخ في الشتاء، أو – ربما – الطريقة التي حلم بها "بابا" و"ماريا"، وربما مثل الجدة نفسها وقد خطَّطت ورأت ذلك يتشابك ويتجعّد عند قدمَي أمها أو أبيها أو جدتها، أو في شبابها أو في فترة عظيمة في زمن الخطوبة، حين نقول: إننا لن نتغيّر أبداً، كلنا نعرف ما معنى أن يكون المرء شاباً. وبطبيعة الحال، فإن الناس ينسون فيما بعد، بعيداً عن المستقبل – ربما – نشعر بموجةٍ عاصفة هوجاء وهي تقترب قادمة من مسافة بعيدة تنذر بالمأساة، من انغماسنا بها، مع معرفتنا أن زنازين كهذه تنتظرنا، القُوّاد بتلك النظرة، تلك الأجساد الشبيهة بجسد جدكَ أو أبيكَ، والنهر، و"سيرجي" عائد منكَّس الرأس وشاحباً، والحياة المهينة لكل إنسان، بسبب الكثير والكثير جداً، حيث يجعل من العسير عليكَ أن تتذكَّر بعد فترة قصيرة كيف تحتفل بالحاضر، تتنفس اللحظة، تتخلّص من كربكَ، وتتبرك بالخبز، ثم يأتي يوم آخر ونحسب أننا سنستيقظ فنجد تلك اللحظة قد انتهت، والسرور قد تلاشى، إننا هنا، يا "ألكسيس" ننتظر أن تأخذكَ تلك الخطوات بعيداً، عاجزات عن إنقاذكَ، ومن دون أن نخبركَ بشيء عن هذا من قبل، جدتكَ أشبه ببئرٍ مغطاة، لم نضحك معاً، وبعد غدٍ سيأخذونها هي أيضاً، هكذا سوف نعيش، بهذه الطريقة.

ما عدا "بابا".

ما عدا "ديمتريو"، "ديمتريو" ما كان ليعيش هكذا أبداً. حزننا يكفينا، كان سيقول، فلماذا نضيف المزيد؟

ذلك هو السبب الذي سيجعله يبحث عنه حتى يجده،

أيتها الجدة في العاصمة سأبحث عنه.

ممكن، يا ألكسيس، لذا اصغِ جيداً، لأنه من غير المؤكد أنها قد تعود، لذا اصغِ جيداً.

- "الشيء الثاني هو أننا نريد القتلة أن ينالوا جزاءهم، أيها القائد".

كان في صوت القائد ما يُوحي بعدم التصديق، كان فيه حقد وهو يقول:

- "تريدين القتلة أن ينالوا جزاءهم"؟

- "لقد كانت هنالك جريمة، أليس كذلك؟ إذن. فلابد أن يجري التحقيق".

فجأة، شعرتِ بأمل أن جدتكَ ستتناول عقاراً يستطيع تحويلكما إلى شخصين لا مرئيين، أعشاباً تجعلكما تتبخران، أو شيئاً بسيطاً فعّالاً مثل مفتاح يستطيع أن يفتح باباً بعد باب، سراً يقدر على إنقاذكما.

سِرٌ. اصغِ، أيها الأرعن الصغير، نوع آخر من السر. بسيط جداً، المخلوقات البشرية ليست وحيدة أبداً. في أحرج اللحظات لا تتطلّب المسألة أكثر من أن تطوي نفسك إلى الداخل فإذا هو هناك، أنتَ، أي واحد، ستجد شيئاً ما يستطيع، حسناً، واحداً يحمل أولئك الذين تكن لهم الحب، تلك هي الحقيقة. وذلك هو كل ما في الأمر. إذا ما وُجد الحب، كأن أولئك الأشخاص يسكنونكَ. رجال الجيش هؤلاء باستطاعتهم رؤيتنا، ضعفاء جداً، عزَّل دونما معين. غير أن على الإنسان أن يشعر بالأسف من أجلهم، في الأخير، لأنهم جد عُمْي حيث حِيل بينهم وبين ذواتهم الخاصة، بُتروا عنها.

هل كان ذلك هو السر، يا جدة، هو؟

- "حسن، يا امرأة، يبدو أنني قلتُ كل شيء. إن ذلك لا يعدو أن يكون سوى مؤامرة سياسية".

- "مؤامرة، أيها القائد؟ إن زوجي لم يُرِد لي على الإطلاق أن أتدخل في السياسة".

- "سياسة، سياسة محضة. لقد خسروا الحرب، وهاهم الآن يريدون تحقيقات ومحاكمات. "سيدة انجيلوس"، إنهم يستغلونكِ. وأسوأ ما في الأمر أنكِ لم تدركي ذلك بعد، أنا واثق أنك تماماً، غير مدركة لذلك. نعاقب القتلة؟ مستحيل".

نعم، كان ذلك هو السر. عليكَ أن تركّز على شخص ما. تماماً كما كان يحدث عندما كنت صغيراً، وتود أن تنال شيئاً ما بأطراف أناملكَ حتى وإن كان بعيداً. ربما كان هناك الكثير مما تريده، لكنَّ واحداً كان يكفي. هل لديه شخص ما، شخص ما يستطيع أن يحتفظ به في ذاكرته؟ ولا يدع نفسه تنفصل عن ذلك الشخص، دوماً يستشعر حضورهم، وحين تتكلم فكأنما هم يستمعون، وهم أيضاً موجودون هناك فيكَ. وما من شيء تقوله يمكن أن يجعلهم يشعرون بالعار. حينئذٍ لا يمكن أن تشعر أنك بمفردك أبداً. هكذا. هكذا يحيا المرء، متحدّثاً مع شخص ما في داخله، هكذا، إنها ستقول، الجدة ستقول، هكذا، هل له شخص كهذا؟

لسوف تغمض عينيك فترسم بداية الضوء الرمادية الآن صورة جانبية لوجه الجدة، وهناك في الخلف السرير النقّال، والقضبان وراءك، ستغمض عينيكَ، لكنكَ لن تضعف، لن تذرف حتى دمعة واحدة.

نعم، أيتها الجدة، بالطبع.

نعم، بالطبع، أنتَ، أيها الدُويبة. أنتَ لم تكن تتحدّث إلى جدتكَ، هه؟ لسوف تتركها تمسد شعركَ، وسوف تشدكَ هي بعنف وتضمكَ إلى صدرها وتمرر تلك اليد على شعركَ، عندئذ، عندئذ، سيرجع. تأكَّد، يا ألكسيس، أنه، إذا ما كان لك شخص واحد، على الأقل، مغروس داخلك، صلبٌ، نامٍ، فسوف تعود.

- "مستحيل؟ أنا لا أظن ذلك، أيها القائد".

ها أنت تسمع وقع الخطوات، بعيداً، على السلم تتعتع متثاقلة وتتقدّم فيتردّد صداها. سوف تشعر بصوت الخطوات الذي لا تخطؤه أذناك قادماً مع أول شعاع، قبل الفجر تماماً.

وأنت، أيتها الجدة، أليس لك شخص داخلك يساعدك على العودة؟

ستلحَظ على وجهها بداية، نعم، إنها بكل تأكيد بدايةَ ابتسامة. هاهو الضوء ينسلُ داخلاً بما يكفي لأن تتبين الخطوط الدقيقة، الظلال، وجهها. آه، أيها الطفل، إنها ممتلئة، مُثقلة، منتفخة كلية بالناس. ولم تكن كذلكٍ، فكيف استطاعت أن تصمد كل هذه السنين، لكنّ، حين يصير المرء عجوزاً.. فإن الشيء الأهم هو، كان، وسيظل، أن يجد الناس الذين نحملهم في ذواتنا مأوى آخر، يجب ألا يموتوا، يا ألكسيس، مفهوم؟

نعم، يا جدة، لقد فَهم.

مزّق صوت القائد المِلحاح سكون المَشهد مثيراً استغرابهما معاً.

- "سيدة انجيلوس"! هل علمتِ أن فريقاً ألمانياً سيصل إلى هنا بعد غدٍ في زيارة تفتيشية؟ وهل عرفتِ أنني لو لم أضبط النظام فإنه سيـ..؟ أيٍ شخص سيفرض النظام إن أنا لم أفعل، ما من شك في ذلك. وأنا، في الحقيقة، أؤمن بأنهم لو قرروا أن يتولّوا مسؤولية هذه المنطقة، فإنكَ ستصرخين بأعلى صوتكِ طالبة عودتي. إنكِ ستذكرينني كما تتذكّرين جنة عدن".

والآن، لا أحد يمكنه أن يوقف اقتراب الخطوات، تلك الأحذية، أولئك الجنود. تحاول أن تمنع الحزن من خنق صوتكَ، وتظن أنكَ قد أفلحتَ. لسوف تتكلّم بصورةٍ اعتيادية وكأنكَ في البيت، تحت الشجرة، وفيديليا إلى جواركَ وماما و...

وصلت الخطوات إلى الزنزانة، إن اليدين تعالجان القفل بالمفاتيح لتفتحا الباب.

وهم، أيتها الجدة، أنَّى لهم كل هذه القوة، صوته صاف ساكن كما لو أن كل زمن العالَم أمامه، وأن صليل المفاتيح الذي يصمُّ الآذان والباب على شفا الانفتاح، واليدان اللتان على حافته لا تخبره بأن، أنَّى لهم كل هذه القوة، القوة الخارقة، أعداؤهم؟ أقوياء؟ ستأتيكَ إجابتها كما لو أنكَ بعيد، كأن محيطاً قد فصل بينكما أو سلسلة جبال، أو شيء أسوأ. أنت تعتقد أنهم أقوياء، يا ألكسيس؟ تأمل جيداً الفرق بينهم وبيننا. الفرق. ليس مهماً أنهم أثرياء ونحن فقراء، أو إنهم مسلحون ونحن عُزَّل، أو إنهم يملكون كل شيء ونحن، حسناً، نحن... لكنهم فارغون، فارغون، حسناً، جوف، أفهمت، ونحن... من الواضح كيف أننا نحن. إنهم فارغون، لو فتحتهم لربما سال قليل من الدم الحزين ومن القذارة، وبعد برهة، حتى أحشاؤهم ستتلاشى أيضاً، وهذا هو السبب في أنهم حين يموتون، فإنهم يموتون إلى الأبد، بينما...

- "ولماذا تشرح لي كل هذا، أيها القائد" قال صوت "الجدة" القاسي المخيف، المُفعَم بالازدراء. "لماذا"؟

وذلك هو السبب في أنهم حين يموتون،

يموتون إلى الأبد. بينما نحن...

أجاب القائد:

- "إن شئتِ الحقيقة، فأنت على صواب حتماً. لماذا"؟

ومرة ثانية صنع تلك الإيماءة بيده، هذه المرة، نعم، بكل تأكيد.

- "لحظة، ياسيد".

هل رأيتَ الآن كيف اقتربت لتلمسكَ. حتى من دون أن تشعر، لقد حرّكت، من دون أن تشعر، جسدكَ كما يتحرّك المغناطيس باتجاه القضبان، ببطء انزلقت نحوها، وها هي الآن يدها تلامس ذراعكَ.

- "أيها القائد، إنك أفضل من "جيورجياكس" ذاك. حضرة القائد أصغِ إلي. لسوف يواصلون الظهور تباعاً الواحد بعد الآخر. لقد رأيتُ

سلفاً، أيها القائد، كيف أن النهر راح يأتي بهم إلى موطنهم. إلى أن يرجع بهم جميعاً لسوف نسترجعهم جميعاً، أيها القائد، كل واحد منهم. كن رجلاً طيباً، أيها القائد. لماذا لا تأتي بهم أنتَ بنفسكَ"؟

ضغط القائد بجسده على القضبان، وصار قريباً من "الجدة" وذراعها الممتدة، قريباً جداً منها، لكنه لم يلمسها.

- "إنكِ لن ترعبيني بالأشباح، لسوف أغادر هذا المكان وأحظى بنوم هادئ، وغداً صباحاً سأقوم بواجبي. وهذه المحادثة، هذه المحادثة لم تجرِ أبداً. إنني أمحوها هكذا ما من أحدٍ سيتذكّرها. لأنكم، أيها الناس، إنكم أيها الناس لا تساوون شيئاً. إنكم لا تساوون شيئاً، فهمتِ؟ انظري ما الذي تمخضت عنه كل جهودكم. انظري هنا، انظري".

ثم أتى بإشارة رعب من رأسه، مثل أسد يزأر، إشارة حاسمة ونهائية.

شعرتَ بالأيدي الغليظة تشدكَ. حاولتَ أن تتقدّم خطوة غير أنّ آلام كتفكَ اتقدت ثانية، الحبل، معصماك ممزقان، وترنحت إلى الخلف، لم تعد "الجدة" ممسكة بكَ الآن. لقد تماسكتَ كي تبقى هناك، تماسكتَ إلى حدٍّ ما، يكفي لأن تلمح ابتسامة "الجدة". إنها لم تقل وداعاً، أو أراك فيما بعد، أو رحلة موفقة، لم يكن هنالك من أثر لكلمة. لقد منحتك ابتسامة، لأنها لم تكن تملك شيئاً لتهبكَ له والليلة لم يعد هنالك متسع من الوقت أمامك لتتمكّن من...

قال القائد:

- "فلنذهب".

أطاعت الأيدي في الحال، العصابة تغطي عينيك، تغلّفهما بالسواد، تلامسكَ مرة أخرى خانقة إياكَ إلى ما لا نهاية. ليس باستطاعتكَ الآن أن ترى "الجدة"، لن تراها ثانية أبداً، حتى ولو مرة واحدة.

إنهم يدفعونك ويجرفونك ويخشوشنون معكَ، لكنكَ تظل واقفاً، في الظلام، هناك أمام الزنزانة، في مواجهة ما لا بد أنه قد ظل عالقاً هناك: ابتسامة جدتك.

تحت عصابة العينين المشدودة، وأنت تتوسَّل نسمة هواءٍ نقية، شممتُ فجأة – رائحة محيط كثيفة ثقيلة تجتاحك – الرجال الآخرون الذين سبق لهم أن كانوا هناك، هنا. الرجال الآخرون. ساعات وساعات، أسابيع وأشهراً وسنوات وساعات من الرجال، ثانية فثانية، دقائق، عيون، ألسن، بُصاق، عرق، شعر، لطخات، ملح، قيء، اتهامات مضادة، خيانات، اضطراب، خوف، تلك الرائحة التي لا تُطاق، المتكدِّسة بفعل الرجال الآخرين، التضرعات لهذا القماش قبل تضرعاتك، الأعين التي حاولت أن تسجل وجهاً كوجه "الجدة"، أو لعلها لم تحظَ بمثل تلك الفرصة، شيء ما، شخصٌ ما، أي شيء، بصيص أخير من ضوءٍ ما، ابتسامة ما، لا يمكن أن تُمحى، لقد ربطوا بها كل واحد، الواحد بعد الآخر، دقيقة دقيقة، واحداً فواحداً فواحداً.

حينئذ، أدرك "ألكسيس" أن "الجدة" كانت على حق حتى لو لم تقل ذلك، نعم، إنها على حق. إنه سيبقى على قيد الحياة.

لقد أدركتُ ذلك مثلما أدركتُ أن "الجدة" خلف الرباط قد أخذت تبتسم في الظلمة. لقد عرفتُ ذلك أعظم مما تعرفه لو كنتَ تنظر إليها، أعظم مما تعرفه لو أزاحوا ذلك الرباط، وأعظم مما لو أن "القائد" قد سمح بآلاف الساعات لتتحادثا قبيل الفجر.

شخصٌ ما جرفك بوحشية.

وفي لمح البصر تمالكتَ نفسكَ أمام الزنزانة. حرّكتَ رأسكَ، مضيتَ سلفاً، سلفاً على الطريق، هززتَ رأسك بخفة، لتقول لـ"الجدة"، نعم، أو

لتقول إلى اللقاء، أو من أجل شيء آخر لم تدرِ كيف تفصح عنه، فما كان هنالك من ضوء لترى من خلاله، وإنكَ تفعل ذلك كله بالطريقة نفسها لأنه ما من أحدٍ على الأرض سيراكَ، أو يتذكّركَ، ماضٍ سلفاً. لكنْ من الأفضل لكَ أن تفعل وها أنت قد فعلتَ، تلك الهزة من رأسكَ باتجاه "الجدة". وعندئذٍ شرعتَ تذرع ممر إرادة حريتك الخاصة.

لا يهمُّ من الذي قالها، من همس بها في أذنكَ، بعيداً في أعماقك.

هو، "ألكسيس"، سيبقى على قيد الحياة. أنا ذاهب إلى العاصمة لأعثر على أبي.

الفصل الثامن

-١٢-

قبيل الفجر بقليل، وبرفقة مأموره، وصل "القائد" إلى النهر.

- "كيف تسير الأمور، أيها الملازم"؟

هكذا سأله مع أنه استطاع أن يرى ابتسامته من خلال الضوء الوامض. لم يسبق له أن رآه يبتسم هكذا وهو في غاية الرضا.

- "حسناً، حضرة القائد، حسناً تماماً. لقد دُرّبت، لقد وُلدت لهذا، وليس للثرثرة طوال اليوم. والصبي"؟

أخذ القائد يحملق في النار، غارزاً فيها قطعة خشب كانت قد نفرت عن اللهب. لاحظ مندهشاً كيف أن الحرارة قد أتت على حذائه. كان صفير النار ولهيبها يتّقدان في مرآة الحذاء الجلدي اللامع، وهو يدوس الفحم الصلب.

قال القائد:

- «"عمانويل"، أخبر الملازم».

- "لقد أرسل السجين، لم تُرِد جدته أن تتعاون".

علّق الملازم، قائلاً:

- "مؤكّد أن ليس لهذه العجوز دمٌ في عروقها. إنها باردةٌ مثل أفعى".

- «وعنيدة مثل بغل. شاهدتُ آخر رجل في عائلتها يُؤخذ ولم تقل حتى كلمة وداع. لقد انتظرتُ لأرى ما قد تفعله. لكنّ، ولا كلمة. مع أناس كهؤلاء،.. قل له، يا "عمانويل"».

- "ما عاد هناك من شيء ليُقال، يا حضرة القائد".

سحب القائد حذاءه من جوار النار حتى صارت حرارتها لا تُحتمل. لم تتحرّك قطعة الخشب. "مع أناس كهؤلاء.."

- "أنا سعيد أنكَ ترى الأمر هكذا، أيها القائد".

- "كل شيء في وقته، يا ملازم. الآن، حتى القس عليه أن يشهد لمصلحتها. لقد فعلنا كل ما بوسعنا لنحافظ على حياة الناس، جرّبنا كل وسيلة من أجل هذا. تصرّفٌ لا غبار عليه.."

لاحظ أن الملازم كان شارداً، غير متجاوب معه. لابد أنه كان يفكر في أنه دائماً ما اعتقد أن هذه هي اللغة الوحيدة التي تفهمها هذه الحيوانات. لغة العنف، تماماً مثل أبيه. أن تتخذ إجراءات صارمة نسبياً هو أسوأ من ألا تتخذ أي إجراءات نهائياً. العدو الوحيد الذي لن يرجع هو ذلك الذي قتلناه بالأمس. كل طفل أعزل اليوم سيكون رجلاً في الغد. إنه لا يزال يتذكَّر كل كلمة من كلمات الجنرال في الكلية العسكرية. والد الملازم سيكون سعيداً الآن، حين يخبرونه أنهم أخيراً وبعد كل تلك المفاوضات المتعدّدة، والمواقف النبيلة التي لا تُحصى، وبعد كل حمامات السلام والابتسامات للمهزومين، أن، أخيراً، الأسلوب الوحيد القابل للتطبيق هو ذلك الأسلوب الذي أوصى هو به، منذ أمد بعيد مع مجموعة في القيادة العليا، منذ البداية: القوة.

فجأة، شعر القائد بالإعياء، تعبٌ يتصاعد من كل ثنية من جسده، متدفقٌ مع كل ما يحيط به من هواء، ومنهالٌ عليه من آفاق التلال الغامضة. لقد اعتقدوا جميعاً: الجنرال، الملازم، "جيورجياكس"، "كاستوريا"، وحتى المأمور، اعتقدوا جميعاً أن هذا العمل لا جدوى منه، بل أسوأ من ذلك، مصيره الفشل. وها هي الجثث التي تُلقى بعمد تام من أعلى النهر، الجثث التي ستستمر في الظهور لاحقاً، ربما بالمصادفة، في المجاري، والوهاد، ومفترقات الطرق، وعليهم أن يستمروا في القتل حتى لا يسأل أحدٌ من أين أتت الجثث، من الذي وضعها هناك، لماذا، إلى متى؟ عميقاً هناك – وكان "القائد" يرغب في محو الصورة، كان يريد أن يمحو، مصدر ما يعتمل داخله، الإعياء الذي لم يكن غثياناً، لا

يمكن أن يكون ذلك غثياناً، كان يريد أن يزيل ما في أعماقه بل أن يزيل فكرة وجود العمق من أساسها – عميقاً هناك، كان الشيء الذي يريده حقاً هو أن يرجع إلى بيته، ويفتح الباب ويجد "نيكولا" هناك هي وأطفاله الثلاثة، أن يخلع هذا الجلد الذي يغطي جسده، وأن يقلب داخله خارجه، ويبيع تلك الأمعاء للآخرين، ويقضي أحداً جميلاً مع الأسرة خاصاً بالأسرة، ثم يعود ذات يوم ليقاتل إذا اقتضت الضرورة، لكنْ ضد قوات مدرَّعة وطائرات حربية وأسلحة آلية. حرب حقيقية ليست فيها نساء عجائز وصبية وفتيات صغيرات.

نظر إلى الملازم بجواره، جد راضٍ، إلى أبعد حد، وكأنه قد رحل إلى الطرف الآخر للكون، وأدرك مرة أخرى أنه لن يقدر أبداً على أن يعطيه هو وكثيرون غيره أدنى إشارة عما حدث له الآن، وهاهو ذا الآن يتقلّص ويتلوّى كبقةٍ مسمومة، مُبتعداً قليلاً. قال محافظاً على ثبات صوته:

– "على أيٍ حال، تعليماتنا هي هي. نلجأ إلى الرصاص إذا قابلتنا مقاومة شديدة. وإلا فلنتقدّم من دون إطلاق نار. هذه التعليمات صادرة من السلطات العليا".

قال الملازم:

"مفهوم. ليس هناك من داعٍ لإهدار الذخيرة على هؤلاء.. النسوة، آملاً ألا يشرعن في إلقاء الأحجار، هه؟"

"هذا أملنا"، قال "القائد" تلقائياً وأخرج علبة سجائره، كان على وشك أن يقدّم سيجارة للملازم، ثم تذكَّر أنه لا يدخن. تماماً مثل أبيه. وقف يتأمل علبة السجائر في يده، كما لو كانت أداة غريبة متقنة ليس متأكّداً من كيفية استخدامها. لماذا هي في يده؟ ومن دون أن يفتحها. أعادها إلى جيبه، وسأل: "وهنَّ؟"

أشار الملازم باتجاه البقعة إلاّ أن شاطئ النهر كان لا يزال غير واضح للعيان. كنّ هناك، كأمس وكالأمس الذي قبله، لا يتحرّكن، منتظرات..

منتظرات لمعجزةٍ ما، لتدخلٍ إلهيٍّ ما، من يدري ما الذي كانت هؤلاء النسوة المجنونات هنَّ وبناتهن ينتظرنه.

وهناك في الأعلى، فوق الفجر الرمادي، البطيء، مرّ سرب من الطيور في السماء، صائحاً، مكوّناً ما يشبه وتداً جميلاً للسماء العالية، ماضياً خلف قائده في رحلة ما وراء الجبال. تابع الضابطان والمرافق تحليق الطيور، يتألق مشرقاً بالحب والثقة والسعادة، رشيقاً صافياً، وشعر ثلاثتهم على نحو غريب باندماجهم في تلك اللحظة. ظنّ القائد أن هناك فوق الرؤوس شيئاً ما كانت النسوة ينتظرنَه أيضاً. وكذلك الولد في الشاحنة المتجهة إلى العاصمة، وبقية الجنود، وتمكّن من فهم السبب الذي جعل الملازم ينتظر حتى يختفي آخر طير في السرب، وآخر صدى من النسيم العليل لليوم الذي لا يريد أن يطلع مع أنه على وشك البزوغ بأي حال. انتظر الملازم حتى صارا بمفردهما مرة ثانية في الصمت، وحدهما مع صوت النهر الرتيب، قبل النداء: "رُصَّ الصفوف، يا رقيب". ثم برقّةٍ أكثر: "تحت أمرك، أيها القائد".

هزَّ القائد رأسه. تأمّل كيف اصطف الجنود، صانعين حائطاً بشرياً بينه وبين الشاطئ؛ ومن خلف تلك الظهور، استطاع بالكاد أن يلمح مجموعة النساء بصورة غائمة وغامضة، بعضهن واقفات، وأخريات منحنيات أو جالسات بجوار الصخور. وهناك في البعيد، في تلك الساعة المبكّرة، لم يكن هنالك وجود لظل مستقل بذاته. كلهن مجتمعات كنَّ يشكّلن كتلة طافية مُرعبة. أنثى ضخمة واسعة بخمسة عشر أو عشرين رأساً. تنبّه "القائد" إلى انعدام الرياح. شيءٌ ما حدثه بأنه في لحظة كهذه ينبغي أن تهب رياح كثيرة، أن يتحرّك الكثير من الهواء في كل اتجاه من دون توقف.

صاح الرقيب آمراً:

- "انتباه!"

أطاع الجنود.

أدّى الرقيب التحية العسكرية؛

-- "نحن جاهزون، يا حضرة الملازم".

اقترح الملازم قائلاً:

- "لعل من المستحسن، يا سيدي أن نعطيهن آخر تحذير".

لم يرتعش صوت القائد:

-- "لستُ أرى سبباً لذلك، أيها الملازم. لقد أعطينَ فرصاً كثيرة. إنهن يعلمنَ ما قد يحدث لهن".

- "حسناً، أيها القائد، إذا كان هذا ما تراه".

-- "في الواقع، يا ملازم، هذا هو ما أراه".

أخذ الجنود يتحرّكون صوب الشاطئ.

كان كل شيء غائماً وبالكاد يرى.

فجأةً انفصلت النساء انقسمن إلى مجموعتين، انشقت النساء، فاستطاع القائد أن يرى النهر، الشاطئ، الصخور. أضاء أول شعاع شمسٍ المكان، شاقّاً الهواء مثل سيف

- "لحظة، يا رقيب" قال القائد.

هناك بين النسوة، كانت الجثة، جثة الرجل الثالث التي قَذَفَ بها الليل والنهر إلى تلك الضفة.

لوهلةٍ، ولأخرى غيرها، وأخرى أطول منهما، تطلّعت النسوة إلى ثلة الجنود، لندع للفجر تمييز الألوان، الظلال، الوجوه، البنادق، الأحزمة، الشرائط والنياشين، حتى يتمكّنوا تماماً من رؤية عددنا ورؤية أيدينا الفارغة، ثم رؤية أجسادنا هذه بينهم وبين النهر، بينهم وبين الجثة الميتة. لن تكون البداية للنساء، لا يمكن. لم يردن أن يكنَّ هنَّ اللائي يخرقنَ الصمت من جديد، ولا ذلك السكون، ولا الضوء المتواني الذي يغمرهن. مكثن هناك، على الحالة التي كنَّ عليها، على الحالة التي نقدر عليها إن هم تركونا بسلام، لو أنهم فقط يدعون لنا تلك السكينة العسيرة، سكينة الأرض، وسكينة ذلك القادم المجهول، هكذا، ما كان، لابد أن يكون، دونما رجل واحد في العالَم كله سوى هذا الميت المجهول عند أقدامنا، ببساطة ينتظرنهم مرة أخرى في هذه الحكاية، الجنود، ليقرروا ما يريدون أن يفعلوه، وكيف سيفعلونه، ومتى.

أبصرت النسوة أحد الضباط، لابد أنه الملازم، يتقدّم خطوة إلى الأمام، أبصرنَ خطوته المتصلّبة المتعالية تمزِّق الفضاء المشرِق، الذي لعله كان، لعله يُدعى الفجر، الصبح، النهار.

وعلى الفور، سمعنَ صوتاً آخر، صوت حيوان عنيف موجع يجيء من بعيد، صوت ذلك القائد، صوت سُمِعَ مع بزوغ أول يومٍ من أيام الخليقة، صوت قال بشكل لا يصدّق:

- "لقد حان الوقت لأن نضع الأمور في نصابها، أيها الملازم. تقدّم في الحال".

انحنت ثماني نساء ورفعنَ الجثة بين أيديهن، كان رأسها متدلّياً، عيناها جامدتان بلا حياة. ما الذي جلبه النهر إلى النور مرةً أخرى، إلى أيدي النساء اللاتي لن يتحرّكنَ وليس إلى أحد آخر.

انتظروا أمر الملازم.

في حين تحجَّرت الجثة في أيدينا وقد بدتْ أشبهَ بمولود جديد.

الأرامل

تم العثور على هذه الرواية بعد أن بقيت ضائعة أكثر من ثلاثين سنة، لقد عثروا عليها في قاع صندوق عتيق مكتظ بالأوراق القديمة والدوريات.

كانت الرواية مسبوقة برسالة للزوجة والمولود المنتظر: سائلاً إياهما... في حال حدث مكروه، أن يسعيا فوراً إلى طباعتها كما هي، وإنما تحت اسم مستعار.

وأياً يكن الأمر، فقد قررت الزوجة والابن نشر الرواية باسم مستعار على الرغم مما تتسم به من بناء مفكك، وإننا لنشعر أننا، بنشرنا للرواية، قد وفينا ذكراه، بشيء مما تستحقه من الاحترام.

الرواية: حرب بطولية عن النضال من أجل البقاء على قيد الحياة، تتحدث عن اختفاء الآلاف من الرجال، وبعض النساء على أيدي البوليس السري لتلك الديكتاتوريات تحت جنح الظلام.

إنه لمن سوء الحظ أن هذه المأساة تحدث في التشيلي والسلفادور وفي جنوب أفريقيا والفلبين، لقد حدثت في الدانمارك سابقاً ومن يدري أين ستحدث غداً.

يقول الكاتب: «ماحتاجه، إذن .... هو القليل من الخيال من أجل تحرير الشخصيات وتبديل المناظر»

الناشر



